الجهاد الفلسطيني وإيران.. قراءة في تاريخ العلاقة وحاضرها

في الحاجة لاستراتيجية مضادة للتشيع بالجزائر

حقائق خطيرة في الشأن العراقي علاقة أمريكا وإيران بتنظيم القاعدة



www.alrased.net

سلسلة إلكترونية شهرية متخصصة بشؤون الفرق من منظور أهل السنة

العدد ١٢٤ شوال ١٤٣٤هـ

إيــــران / الشيعة

وفرض الحالة الطائفية

المحتويات

فاتحة القول

فرق ومذاهب

سطور من الذاكرة

دراسات

كتاب الشهر

جولة الصحافة





رسالة دورية
تصدر بداية
كل شهر عربي

تتوفر من خلال الاشتراك فقط
قيمة الاشتراك لسنة
(٣٠) دولار أمريكي

العدد
(١٢٤)
شوال - ١٤٣٤ هـ

www.alrased.net
info@arased.net

إيران/ الشيعة وفرض الحالة الطائفية

تتصاعد كل فترة صيحات شخصيات علمانية وليبرالية برفض الطائفية والتحذير من مخاطرها كلما تعرضت المصالح الإيرانية للمخاطر أو كلما فشلت الميلشيات الشيعية وحلفاؤها من تمرير مخططاتهم الدنيئة من خلال تصدي علماء أهل السنة أو شبابهم لهذه المخططات سواء بسلاح العلم والكلمة أو بالسلاح للدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وبلادهم وأموالهم، فتبدأ تلك الأبواق بالزعيق وترديد هتافات رفض الطائفية!!

ولو تفحصنا هوية هؤلاء الزاعقين سنجد الغالبية العظمى منهم متورطة من قمة رأسها حتى إخمص قدمها في تأييد الحرب الطائفية الشيعية في سوريا والعراق ولبنان واليمن والبحرين ضد الغالبية المسلمة السنية، وستجدها متورطة بتأييد الانقلاب العسكري في مصر ضد التيار الإسلامي ويؤججون النزعة النازية الاستئصالية ضد الإسلاميين من الحياة السياسية بل ودّ بعضهم لو استطاعوا استئصالهم من الحياة نفسها!!

ومن جهة أخرى نجد هؤلاء الزاعقين مصابين بحالة عمى تجاه الطائفية المقيتة التي تغلف كل تحركات ومواقف وتصريحات إيران ووكلائها في المنطقة، بل إنك تصاب بالذهول من حالة الانفصام التي يعيش فيها هؤلاء بين رفضهم (للإسلام السياسي السني) وبين القبول التام (بالإسلام السياسي الشيعي)!!

وفي الوقت الذي تجد فريق الزاعقين هؤلاء يهوّلون من (الأخونة) فلا مشكلة عندهم مع التغول الشيعي في العراق ولبنان مثلاً!

وفي **الوقت الذي يحذرون فيه من الإرهاب السلفي** المزعوم فإنهم لا يقلقون من الميلشيات الشيعية الحوثية أو الصدرية!

وفي الوقت الذي يولولون فيه من نفوذ المرشد الإخواني فإن المرشد الشيعي خامنئي الإيراني أو السيستاني العراقي لا يخطران لهم على بال!

هذا كله يجعل من هذا الزعيق لا قيمة له موضوعيا ولا أخلاقياً، ومما يؤكد هراء هذا الزعيق وغبائه إن لم نقل بعمالته وتواطئه هو أنه يقفز عن تأسيس إيران والشيعة للحالة الطائفية في المنطقة والعالم الإسلامي، ولا يقوم بتوجيه الاتهام واللوم للمجرم الحقيقي!

فالخميني هو من أطلق المارد الطائفي من سباته في العصر الحاضر، وذلك منذ أن ألقى محاضراته عن الحكومة الإسلامية في منفاه العراقي، وأسس لولاية الفقيه الشيعي لقيادة العالم الإسلامي كله!

ومن ثم رسخ الطائفية في الدستور الإيراني بالتنصيص على مرجعية التشيع والفرس للحكم في إيران في إقصاء لبقية المكونات الإيرانية، وأصبحت هذه الطائفية نموذجا تسير عليه الأحزاب الشيعية في لبنان والعراق والبحرين واليمن.

ورأينا الشيعة في كل بلد يثبتون فيه أقدامهم يسعون لشق وحدة المسلمين بخلق حالة طائفية عبر كسر الأوقاف والقضاء الموحد لأوقاف وقضاء سني وشيعي، وتم هذا في لبنان سنة ١٩٦٧م، وفي الكويت سنة ٢٠٠١م، وفي العراق سنة ٢٠٠٣م، وفي البحرين سنة ٢٠٠٤م، وتمت المطالبة بإنشاء مجلس شيعي أعلى في مصر سنة ٢٠٠٤م، وفي فلسطين/ غزة سنة ٢٠٠٦م، ولكن لم يلتفت لها.

وشاهَد العالم كله سعي الشيعة لزرع الطائفية الشيعية بأبشع صورها عبر الميليشيات الدموية المجرمة التي لم تتردد في قتل الجيران والشركاء في الوطن من المسلمين السنة لتحقيق الحلم الطائفي الشيعي بقيام إمبراطورية الشيعة في المنطقة، وقد سفكت من أجل ذلك مئات الألوف من الدماء السنية في إيران والعراق ولبنان والبحرين واليمن والسعودية والكويت وسوريا، على يد مليشيات شيعية علنية كحزب الله وجيش المهدي وعصائب أهل الحق والحوثيين وغيرهم، وبرغم كل هذا لا تجد إدانة لوجود هذه الميلشيات العلنية التي تمتلك ترسانة عسكرية شبه متكاملة بكل وضوح ولا تتردد في خوض معارك ضد الدولة، ثم لا تجد من فريق الزاعقين أي نكير أو صفير!

أما فرض الطقوس الدينية الطائفية على المجتمع ذي الغالبية السنية فهو لا يحرك في فريق الزاعقين هذا أي غيرة أو حمية.

ففي العراق تم التلاعب بالمناهج الدراسية لفرض الطائفية الشيعية على الطلبة، ولا حس ولا خبر!

ويتم إجبار الموظفين السنة بالدوائر الحكومية على المشاركة في لطميات عاشوراء وذلك تحت رعاية الوزير الشيعي! ولا يعترض أحد على تعطيل المصالح أو قمع الحريات!

وتطلب إيران من لبنان اعتبار يوم القدس يوم عطلة رسمية فيها، ولا أحد يحتج على التدخل بالشؤون الداخلية!

وفي اليمن، يجبر الحوثيون أهل صنعاء على عدم أداء صلاة التراويح في مساجد السنة، ولا تسمع أصوات دعاة الحقوق المدنية والحريات الفردية!

وفي البحرين يتم تفجير سيارة أثناء صلاة التراويح ويمر الموضوع بكل أريحية!

الخلاصة:

الطائفية حالة قائمة وموجودة لكنها من صنع إيران والشيعة، وهما اللذان يجب أن تتوحد الجهود ضدهما لثيهما على تنفيذ المخطط الصهيوني بتفتيت المنطقة، أما الانشغال الباطل بإدانة ردود الفعل على الإجرام الطائفي الشيعي فهو نوع من العمالة الطائفية أو الغباء المستحكم.

عاش المسلمون طيلة عمرهم عبر ١٤٠٠ سنة وأتباع اليهود والنصارى والشيعة والفرق الأخرى تحت ظلهم، ولم يتعرضوا للإبادة كما حدث في محاكم التفتيش الكاثوليكية، ولم يعتدِ عليهم أحد على غرار النازية العلمانية، وكانوا يعامَلون كبقية الناس من المسلمين وغيرهم في العدل والظلم، دون تمييز أو استثناء.

وهذا ما يجب أن تكون عليه الأمور اليوم، فالشيعة طائفة موجودة لا يحق لأحد أن يظلمها ويعتدي عليها بدون مبرر شرعي وقانوني، وفي نفس الوقت لا يُسمح لها بالتمادي في عدوانها بحثاً عن حلم زائف بقيادة المنطقة أو العالم.

ومن حق الغالبية / السنة التصدي بكل حزم وحسم للاعتداءات الطائفية الشيعية ولن نعبأ بنعيق وزعيق فريق العمالة والغباء من النخب الفاسدة.

١٦- علامة العراق أبو المعالي محمود شكري الألوسي (١٢٧٣/١٣٤٢هـ- ١٨٥٦/١٩٢٤م)

أسامة شحادة(*) - خاص بالراصد

تمهيد:

أعاد علامة العراق أبو المعالي وعائلته الألوسية لبغداد، عاصمة الخلافة، مجدَها العلمي الذي عرفته في أيام عزها، وذلك بدروسه المتميزة ومؤلفاته القيمة وتحقيقاته الثمينة، ولكن للأسف لم يلقَ أبو المعالي (وعائلته) ما يستحقونه من التكريم والتقدير، لا في حياته ولا بعد مماته، ومن ذلك أن سيرته لم تدوّن بشكل واف، ولا تزال بحاجة لمزيد من البحث والتنقيب وإظهار ما فيها من جهود مباركة في الإصلاح والتأسيس للصحوة الإسلامية التي نعيشها اليوم، حتى قال عنه محمد رشيد رضا: «ناصر السنة، قامع البدع، علامة المنقول ودراكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبراس الأمة».

نشأته ودراسته:

ولد جمال الدين أبو المعالى محمود شكري الألوسي في بيت جده العالم الكبير أبي الثناء الألوسي صاحب التفسير الشهير (روح المعاني) ببغداد في شهر رمضان من عام ١٢٧٣هـ، ونشأ في عائلة عرفت بالعلم والأدب والديانة، فجده أبو الثناء محمود الألوسي كان عالما واسع الاطلاع، وتولى منصب مفتي الحنفية، وكان له منزلة في عصره حتى أنه أسندت إليه ولاية أوقاف مدرسة مرجان وهي مشروطة لأعلم أهل البلد، وعمه هو السيد نعمان خير الدين الألوسي وهو من كبار العلماء وتولى عددا من المناصب منها رئاسة مدرسة مرجان مثل أبيه، وله عدد من المؤلفات القيمة من أهمها كتابه (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين).

لم يدرك أبو المعالى جده فقد توفي قبل ولادته بسنتين، وقد درس على أبيه مبادئ العلوم وقراءة القرآن، وأخذ عنه الأدب والأخلاق الفاضلة، وختم القرآن الكريم وعمره ٨ سنوات، ولكن توفي أبوه عام ١٢٩١ه وعمر محمود آنذاك ١٨ سنة، وكان أبوه متأثراً بالتصوف فأثر ذلك في ابنه محمود عدة سنين قبل أن تتوسع معارفه وعلومه وينتفض على خزعبلات

(❖) كاتب أردني.

التصوف وخرافاته، وتعد هذه هي المرحلة الأولى من مراحل منهج أبي المعالي.

وعقب وفاة أبيه كفله عمه نعمان الآلوسي والذي كان معاديا للتصوف والخرافة والتعصب، ويدعو للتمسك بالكتاب والسنة وفهم السلف والدليل، فرعاه ووجهه إلى البحث والمطالعة ومناقشة المسائل، وفتح له أبواب خزانته التي تحوي أمهات الكتب وذخائر المخطوطات وخاصة كتب ابن تيمية وابن القيم، ولكن أبا المعالي لم ينسجم مع عمه فانفصل عنه وبحث عمّن يشبه طريقة أبيه، وإن بقيت لتوجيهات عمه تأثيراً في نفسه تجاه الخرافات والتقليد والتصوف!

قال تلميذه المقرب الأستاذ محمد بهجة الأثري: «ولكن الشاب المتأثر بالعقيدة الخلفية والمتشبع بالروح الصوفية الموروثة له من أبيه وأستاذه الأول لم يستطع ملازمة عمه المستقل بعلمه وآرائه الضارب بالخزعبلات الصوفية والمذاهب التقليدية عرض الحائط، فصرف التعصبُ بصرَه عن عمه».

فلازم الشيخ إسماعيل بن مصطفى الموصلي النقشبندي، ودرس على الشيخ بهاء الحق الهندي، نزيل مدينة بغداد، والشيخ عبد السلام بن محمد بن سعيد النجدي الشهير بالشواف، ودرس عليهم النحو واللغة والتفسير والفقه والمصطلح والحديث.

وقد تعلم الألوسي اللغتين التركية والفارسية، وعددا من العلوم الدنيوية كعلم الهيأة (الفلك)، ولم يكتف الألوسي بذلك بل قام بمطالعة مئات الكتب والمخطوطات الموجودة بمكتبات بغداد، فتكونت له معرفة موسوعية ظهرت في كتبه وتحقيقاته، وكانت أول مظاهر موسوعيته كتابه العجيب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»، وسوف نفصل فيه لاحقاً.

يقول الألوسي في ترجمته لنفسه عن هذه المرحلة:

«فوصلت الليل والنهار في التحصيل، وفارقت أخداني وأقراني، وانزويت عن كل أحد فاكملت قسما عظيما من الكتب المهمة في المنقول والمعقول، والفروع والأصول، وحفظت غالب متون ما قرأته من الكتب المفصلة والمختصرة، وأدركت ما لم يدركه غيري، ولله الحمد.

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة
في الدرس أبلغ من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها
أشهى من الدوكاء والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها نقري
لألقي الرمل عن أوراقي» أ.هـ

بداية التدريس والتأليف:

لا تسعفنا التراجم المتوفرة للألوسي بتفاصيل حياته في هذه المرحلة، لكنها تفيدنا أنه توجه للتدريس والتأليف مبكراً.

وهو في هذا يسير على خطى جده أبي الثناء حيث بدأ التأليف وعمره ١٣ سنة! و تصدى كذلك للتدريس مبكراً، فكان أول تصنيف لأبي المعالي الألوسي وعمره ٢١ عاماً وذلك سنة ١٢٩٤هـ وهو كتابه «**الروضة الغناء شرح دعاء الثناء**».

ولم ينتظر أبو المعالى التكليف بالتدريس على عادة زمانه، فباشر بالتدريس متطوعا بدون راتب في داره وفي جامع عادلة خاتون، حيث درّس علوم اللغة والشريعة لجمع من الطلبة.

وحين ذاع صيته واشتهر الألوسي مع بلوغه سن الثلاثين جاءه التعيين الرسمي بالتدريس في مدرسة داود باشا، ثم أضيف إليه التدريس في مدرسة السيد سلطان علي، وقبل وفاته بـ ٣ سنوات (عام ١٣٤٠هـ) تم اعتماده رئيسا للمدرسين في مدرسة مرجان، والتي تسند إلى أعلم أهل بغداد كحال

عمه وجده من قبله.

وكان الألوسي يقضي سائر نهاره في التدريس لطلابه، وكان حريصاً على وقته حيث كان يحضر للمدرسة مبكراً فإن تأخر الطلبة شغل نفسه بنسخ بعض المخطوطات أو المطالعة أو حفظ القرآن، وكان هذا ديدنه بعد انتهاء وقت التدريس حتى يدخل وقت الظهر فيرجع لبيته، ثم يعود للتدريس إلى ما بعد العصر، وبعدها إما يستقبل بعض الزوار في البيت أو يشتغل بالعلم حتى صلاة العشاء، ثم ينام بعدها ليستيقظ قبل الفجر للتهجد وللكتابة والمطالعة حتى قريب الشروق فيذهب للمدرسة، وهكذا يومياً، ولم يكن يدرس في صباح يومي الجمعة والثلاثاء ولكنهما كانا مخصصين للزائرين.

وكان الألوسي صاحب جَلَد على المطالعة والنسخ للمخطوطات والتأليف وساعده على ذلك أنه لم يتزوج قط، وكونه زاهداً في الدنيا فقد كان بسيط الثياب والأثاث، يقنع بأقل القليل، ورفض أن يقبل عطايا الاحتلال البريطاني مع شدة فقره وحاجته، وقاطع أخاه الأكبر حتى الموت حين قبل أن يصبح وزيراً للعدل في عهد الاحتلال البريطاني.

فالتف حوله الأذكياء، الذين وجههم محمود الألوسي للبحث والمناقشة والتأليف والعمل بما تعلموه بما ينفعهم وينفع مجتمعهم، وتجنب سلبيات التدريس السائدة في عصره والقائمة على التقليد والتلقين دون البحث والمناقشة، واقتصارها على بعض العلوم التراثية بدون تجديد في المناهج والأساليب، وهذا جانب في سيرة الألوسي يحتاج إلى مزيد من البحث والتوسع لكن التراجم المتوفرة لا تسعف في ذلك، كما أننا نفتقد إلى قائمة بتلاميذ الألوسي عبر ما يزيد عن ٣٠ سنة!!

وبقي الألوسي ملازماً للتأليف والتدريس طيلة عمره، وهما من أبرز وأهم الأدوار الإصلاحية التي قام بها، والتي كان لهما آثار ضخمة لم تقتصر على العراق أو على زمانه، بل امتدت آثار جهوده لخارج العراق وليومنا الحاضر.

فوزه بجائزة ملك السويد والنرويج عن كتابه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»:

في عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٦م تلقى رسالة من أمين سر لجنة اللغات الشرقية عن مسابقة يرعاها ملك السويد والنرويج لتأليف كتاب عن تاريخ العرب قبل الإسلام، فتردد الألوسي في خوض التحدي خوفا من الاعتقاد بحرصه على الجائزة القيمة (١٧٧٨ فرنكا ذهبيا)، لكن أصدقاءه حثوه على ضرورة إعلاء شأن العرب، فشمر عن ساعد الجد وصنف كتابه «بلوغ الأرب» الذي جاء في ٣ مجلدات وأنهاه في عام ١٣٠٤هـ، وكان المميز في كتابه أنه جاء على غير مثال سابق ولا منهج مطروق مع صغر سن المؤلف الذي بالكاد كان في الثلاثين من عمره حين باشر بتأليفه!

وبرغم تقدم العديد من الشخصيات من بلاد مختلفة للمسابقة إلا أن التفوق والفوز كان من نصيب الألوسي حين أعلنت النتائج في عام ١٣٠٧هـ، فشاع ذكره وارتفع صيته، وتمت ترجمة الكتاب للتركية.

وقد تفنن الألوسي فيه بجمع أخبار وعادات العرب قبل الإسلام مما يدل على شرف معدنهم وقوة أخلاقهم مما جعلهم مؤهلون لقيادة العالم تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث للعالمين كافة.

وقد فتح فوزه بهذه الجائزة عليه باب التواصل بالزيارة والمراسلة مع الكثيرين من العلماء وطلبة العلم من مختلف دول العالم والتي جمعها الألوسي في كتاب ضخم لم يطبع بعد سماه «رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين» وسبقه كتاب «بدائع الإنشاء» جمع فيه بعض رسائل أبيه، ثم بعض مراسلات العلماء والأمراء والأدباء له، ولو طبع هذان الكتابان لكشفا عن تاريخ مجهول في

النهضة الثقافية المؤسسة لنهضة اليوم، ومن طالع كتاب المحقق الأستاذ محمد ناصر العجمي «مراسلات القاسمي والألوسي» يعرف أهمية هذه المراسلات التي كشفت عن جهود منظمة ومتواصلة لبعث تراث ابن تيمية وابن القيم وتراث المحققين من العلماء كالشاطبي والذهبي وغيرهما، وأنه كانت هناك شبكة علاقات ثقافية تمتد إلى الهند والحجاز والبحرين ومصر والغرب من أجل هذه الغاية الشريفة، وهو موضوع يحتاج إلى بحث مستقل بذاته.

علاقته مع أبي الهدي الصيادي:

أبو الهدي الصيادي هو مستشار السلطان العثماني في اسطنبول وصاحب السطوة والنفوذ، وكان صوفياً غارقاً في الخرافات المزعومة للأولياء والبدع بدلاً من اتباع نور العلم الشرعي المستند للكتاب والسنة، ولما بدأ يظهر نجم أبي المعالي محمود الألوسي طلب منه الصيادي أن يشرح قصيدة له في مدح القطب الصوفي أحمد الرفاعي، وفعلاً قام الألوسي بتأليف كتابه «الأسرار الإلهية شرح القصيدة الرفاعية» وذلك في سنة ١٣٠٥هـ، وكان سبب طلب الصيادي هذا الشرح من الألوسي أن جده أبا الثناء كان له شرح أدبي بديع على قصيدة لعبد الباقي العمري في مدح القطب الصوفي عبد القادر الجيلي سماه «الطراز المذهب شرح قصيدة الباز الأشهب»، فأراد الصيادي أن يكون له شرح بديع لقصيدته من حفيد أبي الثناء الألوسي.

لكن أبا المعالى الألوسي في هذه المرحلة (١٣٠٣هـ) بدأت يتضح عنده ما يحتويه التصوف ومنهج الصيادي من انحرافات وخرافات وبدع، ولذلك نجده في شرحه لقصيدة الصيادي يمزج بين اللغة والأدب والشرع، ونجده ينقل عن ابن حجر المكي ثم ينقل عن ابن تيمية وابن القيم! ولكن هذا المنهج المعتدل لم يعجب الصيادي فبرغم قبوله للشرح وطباعته له، إلا أنه قام بإدخال بعض الأساطير والخرافات عليه قبل طبعه، وهو ما جعل الألوسي ينبّه على هذا العبث والتدخل في كتابه «غاية الأماني» وفند تلك الخرافات أبلغ تفنيد.

وكانت هذه المرحلة الثانية في منهج الألوسي، يصفها محمد بهجت الأثري بقوله: «ولما بلغ الألوسي هذا الطور من حياته واتسعت آفاقه الذهنية والعلمية رأيناه يبدأ حالا جديدة من أحوال التفكير والاجتهاد، ويعيد النظر فيما تعاوره في أثناء الشباب من أخلاط العقائد والنزعات المذهبية المختلفة...».

لم ييأس الصيادي فأرسل رسالة شكر له ومجموعة من كتب الطريقة الرفاعية وطلب منه الانضمام لها ورفع لوائها في العراق، مع إغرائه بالرفعة والتكريم عند السلطان، لكن أبا المعالي اعتذر منه في البداية بلطف وأنه مشغول بالعلم والتأليف والتدريس، لكن الصيادي عاود الكرّة مرة أخرى، ومرة أخرى اعتذر الألوسي وأعلن له أنه لا يقبل الخرافات التي تتردد في كتب الطريقة أو ما يقوم به بعض شخصيات الطريقة، ومما كتبه الألوسي للصيادي: «لا وقت لي لسلوك طريقة من الطرائق... ولا سيما وأن جميع من ينتمي إلى طريقتكم في الخطة العراقية جهلة أوباش عوام، لا يميزون بين اليمين من الشمال، ولا الحلال من الحرام، ديدنهم سؤال الناس، فيما يحتاجون إليه من الأكل واللباس... ولا شك أن مثل هذا لم يكن على عهد الشيخ أحمد ولا على عهد غيره من الأكابر، إنما أحدث ذلك جاهل بالشريعة الغراء، مناقض لمقاصدها العلية بلا مراء ... فالعفو يا سيدي عن سلوك طريقتك ... لأنني والحمد لله ممّن اشتهر حاله بالذب عن السنن والرد على كل زائغ من أهل البدع والأهواء والفتن».

نصرة الألوسي لمنهج السلف:

في هذه المرحلة (الثالثة) استقر الألوسي وهو في

مطلع الثلاثين من عمره على منهج السلف فبدأ بالذب عنه والدفاع عنه، وذلك بعد أن توسعت معارفه وطالع تفسير جده أبي الثناء «روح المعاني» والذي قام على التحقيق والتدقيق وطالع الكتب والمخطوطات ونبتت في قلبه القواعد التي زرعها عمه النعمان الألوسي.

قال الأثري عن هذه المرحلة النهائية في منهج الألوسي: «ثم ما لبث الألوسي أن أصحر عن انحيازه في جرأة وقوة إلى الحركة السنية السلفية، مع مقاومة الدولة العثمانية الصوفية لهذه الحركة الإصلاحية بكل قواها الرجعية».

ويعتبر عام ١٣٠٥هـ هو الفاصل بين مرحلتين في تأليفات وحياة الألوسي، ففي عام ١٣٠٦ه أعلن الألوسي عن موقفه الجديد من خلال كتابه «فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان»، والذي دافع فيه عن الدعوة الوهابية والشبهات التي تثار في وجهها، وقد قام بطباعته في الهند الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر عام ١٣٠٩هـ.

وحين وصل الكتاب إلى أتباع الصيادي في العراق قامت قيامتهم ضده واستعدَوا عليه شيخهم أبا الهدى الصيادي، فكتب إليه معاتباً ومزج بين الوعد والوعيد، فلم يعبأ به الألوسي وكتب إليه يقول: «لم نزل متمسكين بهدي السادة السلف ... غاية الأمر أني أكره المغالاة في عباد الله، ولا تسمح نفسي أن أصفهم بصفات الألوهية ولو بلغ الأمر منتهاه... فما بلغك، صرير باب، وطنين باب، وإني بحمد الله لست ممن يحابي أمثالك، أو يرهب أقوالك وأفعالك».

وهكذا أصبح الألوسي عرضة لهجمات الخرافيين والمبتدعة، ومضى في طريقه لا يعبأ بهم وبمؤامراتهم، وبحسب تعبير الأثري: «ولأستاذنا الألوسي النصيب الأكبر احتسب حياته لخدمة الدين الإسلامي، وتطهيره من أوضار البدع والمحدثات، التي فتّت في ساعده، وبذل في ذلك غاية جهده، فجاهد أهل الحشو ودعاة عبادة القبور جهاد الأبطال في ساحات القتال».

وانكب الألوسي على التدريس والتأليف فزاد صيته وكثر قاصدوه من العلماء وطلبة العلم، وقد سجل الألوسي في ترجمته الذاتية ما يلي:

«ثم إني توغلت في اتباع سيرة السلف الصالح، وكرهت ما شاهدته من البدع والأهواء، ونفر قلبي منها كل النفور، حتى إني منذ صغري كنت أنكر على من يغالي في أهل القبور، وينذر لهم النذور، ثم إني ألفت عدة رسائل في إبطال هذه الخرافات فعاداني كثير من أبناء الوطن، وشرعوا يغيرون علي ولاة البلد، ويحرضونهم على كتابة ما يستوجب غضب السلطان علي وفعلوا ذلك مرارا».

وهنا تبدأ مسيرة الإصلاح الحقيقي للألوسي، والتي يمكن أن نلخصها في المجالات التالية:

١- المشاركة في الصحافة: ففي عام ١٣٠٧ه دعاه الوالي سري باشا الكريدي وكان من العلماء أصحاب التأليف، وكان معجباً بمواهب الألوسي، فدعاه لرئاسة القسم العربي من صحيفة الزوراء التي تعد أول جريدة صدرت ببغداد في سنة ١٢٨٦هـ وكانت تصدر بالعربية والتركية.

وحين تولى الألوسي القسم العربي لمدة سنة ونصف تقريباً ازدهرت وارتفع مستواها، وكان الألوسي يحرر المواضيع والأخبار ويكتب لها المقالات، وللأسف لم يقم أحد بجمع هذه المقالات ودراستها حتى نتصور أولويات الإصلاح عند الألوسي في المجتمع العراقي في تلك الفترة.

وبعد جريدة الزوراء نشر الألوسي بعض البحوث في عدد من المجلات مثل: سبيل الرشاد، والمقتبس، والمشرق، ومجلة المجمع العلمي العربي، والمنار وغيرها، وأيضاً تحتاج هذه الأبحاث إلى فهرسة وجمع حتى تعظم الفائدة منها.

٢- مواصلة جهوده في التدريس والتعليم في المدارس، ومجالس الوعظ والإرشاد في مساجد

بغداد خصوصاً في جامع الإمام أبي حنيفة، وكانت نتيجة هذا أن تخرج على يديه نخبة من العلماء العراقيين تأثروا بفكره وعِلمه مثل: العلامة محمد بهجت الأثري، والأستاذ المؤرخ عباس العزاوي، والشيخ عبدالكريم الشيخلي المعروف بالصاعقة[1]، والشيخ رشيد حسن الكردي، والشيخ محمد القزلجي، والشيخ علي بن حسين الكوتي والشيخ الإمام أمجد الزهاوي وغيرهم من خيرة علماء العراق، وكذا عدد من أدباء وشعراء العالم العربي منهم الشاعر معروف الرصافي.

ومن غير العراقيين: المؤرخ الكويتي عبدالعزيز الرشيد، وسليمان الدخيل النجدي صاحب جريدة الرياض ومجلة الحياة في بغداد، وهو نجدي سكن بغداد، والشيخ محمد بن مانع من فقهاء نجد.

ومن تلاميذه غير المسلمين: الكاتب واللغوي العراقي الأب أنستاس الكرملي، وعدد من المستشرقين مثل لويس ماسنيون الفرنسي، ومرجليوت من إنكلترا.

٣- الاهتمام ببعث التراث العلمي السلفي الذي يحارب أمراض الخرافة والجهل والسفسطة والجمود والتعصب، حيث كان الألوسي يقوم بتتبع الكتب النادرة والمهمة في مكتبات العالم من خلال مراسلاته مع العلماء والفضلاء، فإذا حصل على كتاب يقوم بنسخه بيده ويطلب من تلاميذه فعل ذلك لتكثر نسخه، ومن ثم قد يحتفظ بها لنفسه أو يرسل بها للمكتبات العامة الكبرى في البلاد المختلفة، مثل خزانة أحمد تيمور باشا، وخزانة أحمد زكي باشا بالقاهرة.

وأحياناً يقوم مع نسخ المخطوط بتحقيقه ونشره في إحدى المجلات المرموقة، وأحياناً كان يكاتب بعض الأغنياء في العراق وخارجه ليحثهم على طباعة الكتب المهمة.

يروي تلميذه محمد بهجة الأثري قصة اللقاء الأول معه فيقول: «سمع الألوسي بوجود بعض أجزائه – كتاب نقض أساس التقديس لابن تيمية – في دمشق ونجد، فجدّ في استكتابها حتى ظفر بها، ووافق وصولها إليه طلبي أخذ العلم عنه، فجعل شرطه علي نسخ هذا الكتاب وقراءته عليه، لأُفيد منه الأنظار الصحيحة في العلم وأصول البحث وطرائق الجدل والاحتجاج، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية أعظم فرسان هذا الميدان في الإسلام».

وفي حادثة أخرى تكشف عن مستوى جدية الألوسي ومثابرته وبعد نظره، يقول الأثري: «حمل إليه أحد تلاميذه القدماء ذات يوم مخطوطاً في «مثالب العرب!» قديم العهد، غفلا من اسم مؤلفه أُهدي إلى أمين الريحاني عند زيارته لبعض المدن العراقية .. فلما أجال نظره فيه، غضب أشد غضبة رأيتها منه، وساءه أن يهدى مثل هذا الكتاب إلى الريحاني، وخشي أن ينتهي إلى شعوبي من هؤلاء الشعوبيين المعاصرين الذين نشّأهم «الاستعمار الأوروبي» ليحارب بهم اليقظة العربية، فأخذه وشقّه شقين، احتفظ بأحدهما، ودفع إلي الآخر، وقام من فوره فقام من في المجلس لقيامه، وهو يقول لي: هذا كتاب خبيث يجب عليك نقضه، ولا أريد أن أراك في صبيحة الغد إلا قد أنجزت قسطك منه، والتقينا في صبيحة اليوم التالي ولدينا نسخة جديدة من الكتاب، يملك كل منا نصفها، ثم أكمل نسخته وأكملت نسختي، ورد النسخة القديمة إلى صاحبها لم تبت عندنا إلا ليلة واحدة، وعنيت بوضع ردي عليه من بعد، حتى إذا نشر الأصل كان الرد عليه حاضراً»، فانظر بالله عليك لهذه الهمة الفائقة في النسخ وهذه اليقظة للخطر القادم، والمبادرة لوضع رد على شبهة متوقع أن تروج، وقارن هذا

(١) رائد الدعوة السلفية المعاصرة في العراق، ومن تلامذته الشيخ صبحي السامرائي وعبد المنعم صالح العلي (محمد أحمد الراشد) وعنه اشتهر علم الحديث والعقيدة السلفية في العراق.

بحالنا اليوم حيث الخطر يجتاحنا ويدمرنا ونحن نبحث في جزئيات وفرعيات لا طائل من ورائها، أو نضيع الأوقات والجهود في الحديث عن الخطر الذي يحاصرنا بدلاً من البحث عن الحلول والمخارج لورطتنا والانشغال بها!!

ومن الكتب المهمة التي نشرها الألوسي:

«منهاج السنة» وبهامشه «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، وكلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع بمصر سنة ١٣٢١هـ.

«جواب أهل العلم والإيمان» لابن تيمية، طبع بمصر سنة ١٣٢٢هـ.

«تفسير سورة الإخلاص» لابن تيمية، طبع بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، طبع بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

«شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم، طبع بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

«تأويل مختلف الحديث» للإمام ابن قتيبة، طبع بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

ومن استحضر طبيعة ذلك الزمان في ضعف وسائل النقل والاتصال يعرف كم هي المصاعب التي واجهت الألوسي في جمع هذه الكتب من بلاد شتى عبر وسائل البريد البطيئة، ثم نسخها يدوياً ثم مراجعتها والتعليق على بعضها، ثم إرسالها للقاهرة للصف اليدوي وبعضها يقع في عدة مجلدات، وكل ذلك بمجهودات فردية من رجل وحيد وفقير، حتى تخرج للناس فتضيء لهم طريق الحق وطريق السلف!

محنته عام ١٣٢٢هـ:

بسبب جهود الألوسي الإصلاحية في التدريس والتأليف ونشر التراث، وكعادة المصلحين والمجاهدين فقد هاجمه أعداء الإصلاح فلفقوا ضده عدة تهم ووشايات كاذبة عند الوالي الجديد لبغداد عبدالوهاب باشا، والذي كان رجلاً جاهلاً ينصر الخرافة ويحارب الإصلاح والمصلحين، فانتهزوا الفرصة وقالوا له إن الألوسي يدعو للخروج على السلطان! وأنه يؤسس مذهباً يناصب كل الأديان العداء! وأن تأثيره خطير بين الناس! واستعانوا بشيخهم أبي الهدي الصيادي في عاصمة الخلافة، فصدر الأمر بنفي أبي المعالي وابن عمه السيد ثابت نعمان الآلوسي والحاج حمد العسافي النجدي رحمهم الله إلى الأناضول فوراً.

وفعلاً أُخذ الألوسي ورفاقه من بيوتهم واختبأ بعضهم وهرب البعض الآخر، ولكن عندما وصلوا للموصل في طريقهم للأناضول قامت قائمة الموصليين وخرجوا لاستقبال الألوسي ورفضوا إبعاده ورفاقه الذين يعدون من أعلام العراق الكبار، وراسلوا السلطان لتوضيح الموضوع وإلغاء الإبعاد.

وحين علم المتآمرون في بغداد بذلك، دبروا مؤامرة جديدة إذ أرسلوا مجموعة من كتب ابن تيمية بالبريد للموصل باسم الألوسي، ووشوا لبعض أتباعهم بالموصل بذلك حتى يورطوا الألوسي، وفعلاً ضبطت الكتب وعقد والي الموصل مجلساً لأبي المعالي أدانه فيه علماء السوء وطلبوا إتلاف الكتب ونفيه فوراً، لكن الله نجاه مرة أخرى من كيدهم، بفضل مساعي علماء الموصل المخلصين الذين كانوا يعرفون قدر الألوسي وفضله وبفضل جهود ابن عمه علي علاء الدين الذي كان يعيش في إستانبول، فجاء أمر السلطان بإبطال النفي وعودته لبلده مع إعادته لوظائفه التدريسية، وللأسف لا تسعفنا المصادر بمعرفة هؤلاء العلماء الموصليين ولا تفاصيل علاقة الألوسي بالموصل، والموصل من بلدان العراق التي عرفت الدعوة السلفية مبكرا.

فصدر العفو عنه وعن رفاقه بعد أن مكثوا شهرين في الموصل، فعادوا منصورين، وخرج أهل الموصل معه أميالاً يودعونه، وخرج أهل بغداد أميالاً يستقبلونه، وكتب الشيخ عبداللطيف بن ثنيان في

صحيفته (الرقيب) مقالاً بعنوان: (الحمد لله عاد الحق لأهله).

وسجل الألوسي هذه المحنة فقال: «حتى ألجأوا بعض الولاة أن يكتب للسلطان بأن الأمر خطر إن لم يتداركه، وأن العراق يخرج من البلد بسبب تغير عقائد الأعراب إلى ما يخالف ما عليه الجمهور من العوام ولم يزل يلح حتى ورد الأمر بإبعادي إلى جهة ديار بكر فلما وصلت إلى الموصل قام رجالها على ساق، ومنعوني أن أتجاوز بلدتهم وكتبوا كتابات شديدة اللهجة إلى السلطان فجاء الأمر بعد أيام بعودي إلى بغداد مع مزيد الاحترام والإكرام وسقط في أيدي الأعداء ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله».

وبعد هذه المحنة لم يحد الألوسي عن منهج الحق والصدع به، وإن لجأ للحذر والاحتياط حتى لا يمكّن الخصوم منه، فصار ينشر بغير اسمه الصريح.

٤- ومن أدواره الإصلاحية تأليف الرسائل والكتب النافعة لأهل زمانه، فقد مر معنا أن الألوسي بدأ التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقد كان لديه «قوة على التأليف عجيبة» كما يقول الشيخ كامل الرافعي، ألف كتاباً من ٧٠ كراسا في أربعين يوماً! ولذلك تزيد مؤلفات الألوسي عن خمسين كتاباً ورسالة في فنون متعددة شرعية ولغوية وتاريخية.

وكانت كتبه الدينية الإصلاحية هي مدار دعوته وتميزه في بغداد، فقد سعى من خلالها للدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام شوائب الشرك والبدع التي عمت العالم الإسلامي، فمنها:

- «فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان» والذي طبع سنة ١٣٠٩هـ وسبق الحديث عنه.
- «غاية الأماني في الرد على النبهاني» والذي طبع في سنة ١٣٢٧هـ باسم غير صريح هو أبو المعالي الحسيني السلامي الشافعي، بسبب مؤامرات أعداء الإصلاح ضده وتأليب دولة الخلافة العثمانية عليه.
- «الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى»، وهي منظومة للنبهاني رد فيها على كتاب الألوسي «غاية الأماني» وسب وشتم فيه النبهاني المصلحين في عصره، فرد عليه الألوسي بشكل مختصر.
- «تاريخ نجد» كتبه عقب زيارته لنجد بتكليف من الدولة العثمانية، عرف فيها بنجد وأهلها ودافع عن عقيدتهم وأنها عقيدة السلف الصالح وليس كما يدعي أعداؤهم وخصومهم.
- «فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية» لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، طبع بعد وفاته.

ومن الجهود التأليفية المهمة للألوسي تصديه لإبطال دعاوى التشيع ودحض عقائدهم، وقد ذكر هو ذلك في رسالته في الرد على العاملي في حصونه: «والفقير ردَّ عليهم (الشيعة) بنحو ألف ورقة فاغتصبته الحكومة، وذلك بثلاث مصنفات أحدهما المسمى بـ (صب العذاب) «ومما فقد كتابه «رجوم الشياطين» في الرد على الشيعة، ومن مؤلفاته في الرد على الشيعة:

- «المنحة الإلهية تلخيص ترجمة التحفة الإثني عشرية» ١٣٠١هـ.
- «السيوف المشرقة مختصر الصواعق المحرقة» ١٣٠٣هـ.
- «صب العذاب على من سبّ الأصحاب» ١٣٠٤هـ.
- «سعادة الدارين في شرح حديث الثقلين» ١٣٣٦هـ.

ومن كتبه أيضاً:

- الدر اليتيم في شمائل ذي الخلق العظيم

صلى الله عليه وسلم.

- تجريد السنان في الذب عن أبي حنيفة النعمان.
- كنز السعادة في شرح كلمتي الشهادة.
- الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية.
- تاريخ بغداد.

٥- مشاركته في إدارة ولاية بغداد، ففي سنة ١٣٣٠هـ تمكن جمال باشا والي بغداد من إقناع الألوسي بقبول منصب عضو مجلس الإدارة في بغداد، بعد أن انتخبه البغداديون، فقبله بسبب الحرية المطلقة له في خدمة الناس والمصلحة العامة، لكن لا توجد لدينا تفاصيل عن المدة التي قضاها والإنجازات التي قام بها.

وهذه المشاركة تدل على الشعبية التي حظي بها الألوسي عند أهل بغداد، وأنه بسبب هذه المكانة كان يحرص الساسة والولاة على مشاورته وتقريبه، لكنه كان دوما يرفض تولي المسئوليات والمناصب.

ويلخص لنا بهجة الأثري موقف الألوسي من الدولة العثمانية بقوله: «كان حائراً بين الرضى بها والكره لها. ومن أسباب رضاه بها أنها كانت في هذا الشرق طوال خمسة قرون موئل المسلمين، وحامية الإسلام والحصن المنيع الذي قام بوجه الغرب المتحفز للاستيلاء على دياره وإخضاعها لسلطانه الذي قد يعتذر الخلاص منه إذا هي وقعت في قبضته. فإذا زالت هذه الخلافة، يزول معها الوجود السياسي للإسلام، ويحدث بعدها فراغ في الحياة الإسلامية يُهدد بملئه بحياة أخرى مكانها أو يُعرضها لمصاير منكرة لا طاقة لأحد بدفعها، أو هكذا كان يخيل إليه.

وأما باعثه على كرهها، فهو الفساد الذي أصاب حياة الدولة في أخريات أيامها، وكان استشري وجاوز المدى وبلغ الحد الذي جزع منه الأحرار، وعلاهم القنوط من إصلاحه ولم تغن معه حيلة ولا أجدى اجتهاد.

ولا ريب أن حزم الحازم يضيع في مثل هذين الحالين مهما ملك الإنسان صوابه ورشده، ولا تكون في أحدهما خِيرة لمختار» أ.هـ، وما يزال هذا التحليل الدقيق منطبقا على واقعنا اليوم!

ونستفيد من مشاركة الألوسي في إدارة بغداد على ضرورة مباشرة المصلح للشؤون العامة إذا توفرت البيئة المناسبة من قبول الناس وتأييدهم وحرية الحركة.

٦- لما هاجم الإنجليز العراق عام ١٣٣٣هـ عقب الحرب العالمية الأولى، واحتلوا مدينة الفاو والبصرة، قررت الدولة العثمانية أن تجيش العاطفة الإسلامية في الجهات الإسلامية التي حاربتها الدولة العثمانية من قبل مثل الجزيرة العربية التي شنت عليها فقضت على دولتهم الأولى والثانية، وفزعت إلى الألوسي لتستعين بسمعته ونفوذه العلمي لإقناع الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود (مؤسس الدولة السعودية الثانية) بنجدة الدولة العثمانية والوقوف إلى جانبها في هذه الحرب، وأن يتولى ضرب مؤخرة الإنجليز في الوقت الذي يضرب الجيش العثماني مقدمة الجيش الإنجليزي.

وفعلاً قبل الألوسي المهمة دفعاً للشر والضرر عن بلاد الإسلام وسافر إلى نجد برغم شيخوخته وصعوبة الطريق ومشاق السفر على ظهر الجمال، وكان برفقته ابن عمه العلامة علي علاء الدين الألوسي، والحاج بكر بك، والحاج نعمان الأعظمي.

وفي نجد استُقبل الوفد أحسن استقبال وتفهم الأمير الغرض والغاية من السفارة، وأن نصرة المسلم لأخيه واجبة، لكنه رأى أن قوته لا تطيق محاربة الإنجليز، مما يفرض عليه الحياد؛ لأن دخوله في الحرب ينتهي إلى تقويض إمارته الصغيرة بما لا ينفع الدولة العثمانية شيئاً.

واقتنع الألوسي ورفاقه برأي الأمير عبد العزيز، وعادوا بوعده بالتزام الحياد، وعدم الانجرار للثأر ممن حاربه قديماً.

ولما عاد الوفد ووصل دمشق قام بعض المحرضين من أعداء الإصلاح بمحاولة تأليب الوالي جمال باشا السفاح على الألوسي، وأنه هو الذي أقنع الأمير بعدم نجدة الدولة والوقوف على الحياد، إلا أن جمال باشا الذي كان يعرف الألوسي جيداً وصدق نيته وإيمانه بالوحدة الإسلامية لم يسمح لهذه الوشايات، ورضي بالحياد من أهل نجد.

وفي سفره لنجد مرّ الألوسي على حلب ودمشق وفلسطين فالحجاز ومن ثم نجد، وقد استفاد خبرة واسعة من هذه السفرة بأحوال البلاد العربية، ولكن للأسف لا نعرف بمن التقى في هذه المدن، وهل كان له مجالس علمية بها؟ وهل حصل منها على مخطوطات؟ كما أنني لم أجد في ترجمة الأثري لشيخه الألوسي ذكر هل حج أم لا؟

٧- ولما وقع البلاء واحتلت بريطانيا العراق، وقد عاش تحت حكم الإنجليز ٨ سنوات، لم يقبل أن يتعامل معهم برغم محاولاتهم المتكررة معه لتسليمه بعض المناصب مثل منصب المفتي، وقاضي القضاة، كما رفض قبول الأعطيات منهم، ورفض قبول ٣٠٠ جنيه من المندوب السامي البريطاني جاءه بها تلميذه الأب أنستاس الكرملي، وقال له: «خير لي أن أموت جوعاً على أن آخذ مالاً لم أتعب في كسبه». وذلك حين كان الألوسي يعاني من الفقر فلا يلبس إلا ثيابا بسيطة، ويجلس على الحصير في غرفة وحيداً بلا زوجة ولا ولد!

وواصل جهوده في التدريس والتأليف وتحقيق للكتب، وقبل عضوية مجلس المعارف ليتمكن من توسيع نطاق العلم في العراق، والعضوية الفخرية للمجمع العلمي العربي بدمشق.

مرضه ووفاته:

أصيب الألوسي برمل في المثانة سنة ١٣٣٧هـ فأهمله، حتى اشتد عليه في سنة ١٣٤١هـ فانقطع عن التدريس مدة، ثم عاود التدريس فهزل جسمه وتعب قلبه، وفي العشر الأواخر من رمضان سنة ١٣٤٢هـ أصيب بذات الرئة، وبعدها بأيام توفي عند أذان الظهر وحوله كتب العلم، رحم الله الآلوسي وألحقه بالصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وقد دفن بمقبرة الشيخ الجنيد وكانت له جنازة مهيبة، وصُلي عليه في نجد صلاة الغائب، ورثاه العلماء وأهل الفضل والدعاة الذين كانت له صلات مع كثير منهم، وقد رثاه العلماء والأدباء والشعراء:

رثاه الشاعر العراقي معروف الرصافي بقصيدة منها:

محمود شكري فقدنا منك حبر هدى
للمشكلات بحسن الرأي حلالا
قد كنت للعلم في أوطاننا جبلاً
إذا تقسّم فيها كان أجبالاً

ورثاه تلميذه محمد بهجة الأثري بقصيدة منها:

بغدادُ قد أقفرت من بعد مصرعه
فقلقل الركبُ عن بغداد أهبالا
هذي المدارس أضحت وهي باكية
من بعد شيخ بنى الآداب أطلالا

مراجع للتوسع:

- محمود شكري الألوسي سيرته ودراساته اللغوية، العلامة محمد بهجة الأثري، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- أعلام العراق، العلامة محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٥هـ.
- مقدمة كتاب صب العذاب على من سب الأصحاب، أبو المعالي الألوسي، تحقيق عبدالله البخاري، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- مقال حياة الشيخ العلامة محمود شكري الألوسي، عبدالله بن صالح المحمود آل غازي، مجلة الحكمة عدد ٥، شوال ١٤١٥هـ.

الشيعة يضيعون الأصول الأربعمائة

هيثم الكسواني(*) – خاص بـ «الراصد»

شغل أئمةُ الشيعة الإثنا عشر مساحة من الزمن امتدت لثلاثة قرون، ومع ذلك فإنه لا يوجد لأحد منهم كتاب في الفقه أو الحديث، يبين مذهبه وفقهه، على العكس من أئمة المذاهب الأخرى، وإن كلّ ما وصلنا منهم هو روايات منسوبة إليهم تم تدوينها بعدهم بفترة طويلة، حيث يعتبر كتاب (الكافي) لمحمد بن يعقوب الكليني أقدم كتب الحديث عند الشيعة، وأوثقها، وأحد أربعة كتب معتمدة في الروايات المنسوبة للأئمة تُعرف باسم الكتب الأربعة أو المصادر الأربعة.



وإذا علمنا أن الكليني، الملقب عند الشيعة بـ (ثقة الإسلام)، تُوفي في سنة ٣٢٨هـ، فإن ذلك يعني وجود فاصل زمني كبير بين الأئمة وبين الروايات المنسوبة إليهم، لا سيّما جعفر بن محمد الصادق، رحمه الله، الذي يعتبره الشيعة الإثنا عشرية سادس أئمتهم المعصومين (ت: ١٤٨هـ)، والذي ينسبون إليه مذهبهم الفقهي، ما يجعل المذهب مشكوكا في أصله.

المأزق الأول

للخروج من هذا المأزق (أي عدم وجود مؤلفات للأئمة أو روايات جُمعت في عصرهم) قال الشيعة إن لديهم ٤٠٠ كتاب دوّنها تلاميذ الأئمة مباشرة، من مجالسهم وإملاءاتهم، عُرفت باسم: الأصول الأربعمائة. وهؤلاء عددهم أيضا ٤٠٠ شخص، لكل واحد منهم مصنّف، وكلهم سمعوا الأحاديث من الأئمة المعصومين مباشرةً ومن دون واسطة في النقل ودوّنوها في كتبهم، فكان عليها اعتمادهم، وقد عُرض كثير منها على الأئمة. لذلك تعتبر تلك الأحاديث عند الشيعة من أمهات الأحاديث الشريفة

(*) كاتب أردني.

القطعية الصدور عن الأئمة وأهل البيت، من هنا اصطُلِح على تسميتها بالأصول الأربعمائة، باعتبارها أصولاً لغيرها من الأحاديث.

يدلل الشيعة على هذه الأصول واطلاع الأئمة عليها بروايات، منها: «عن أبي هاشم الجعفري، قال: عرضتُ على أبي محمد العسكري عليه السلام (الإمام الحادي عشر) كتاب (يوم وليلة) ليونس فقال لي: تصنيف مَن هذا؟ قلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين، فقال: أعطاه الله بكل حرف نورا يوم القيامة».

ومنها أيضا: «عن أبان بن أبي عياش قال: هذه نسخة كتاب سليم بن قيس العامري ثم الهلالي دفعه إلى أبان بن أبي عياش وقرأه وزعم أبان أنه قرأه على علي بن الحسين عليهما السلام فقال: صدق سليم، هذا حديث نعرفه».

المأزق الثاني

وقع الشيعة في مأزق آخر، وهو أن هذه الأصول التي يعتقدون أنها «من أمهات الأحاديث الشريفة القطعية الصدور عن الأئمة وأهل البيت» وبأن تلاميذ الأئمة دوّنوها على مدى ثلاثة قرون، ليس لها وجود، وباعترافهم فإنها اندثرت واختفت وأُتلفت وأُحرقت، ما يجعل مذهب الشيعة على المحكّ، إذ كيف يعقل أن هذه الأصول التي قام عليها مذهبهم، والبالغ عددها أربعمائة، ليس لها وجود؟!

للخروج من هذا المأزق الجديد، قال الشيعة إن هذه الأصول الأربعمائة جُمعت وتم تلخيصها في كتب الحديث الأربعة المعتمدة عند الشيعة وهي (الكافي للكليني، ومَن لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمي، وتهذيب الأحكام والاستبصار للطوسي)، والتي ألّفها أصحابها في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

ويقول الشيعة إنه مع حُسن تبويب الكتب الأربعة انتفت الحاجة إلى الأصول الأربعمائة، واستُغني عنها، وهكذا ببساطة يحلّ الشيعة إشكالية عدم وجود الأصول التي قام عليها مذهبهم، يقول د. طه الدليمي: «لقد ضاعت جميعها، ولم يبقَ منها إلاّ أخبار عنها تُذكر في الكتب! وهي لو وُجدت حقا لاحتاجت إلى فحص وتدقيق، وتثبت وتوثيق. فكيف وهي مفقودة لا وجود لها؟!».

للاستزادة:

١- أسطورة المذهب الجعفري – الدكتور طه حامد الدليمي.

٢- مع الإثنى عشرية في الأصول والفروع – الدكتور علي أحمد السالوس.

٣- دراسة «تراثنا الحديثي مأخوذ من الأصول الأربعمائة الشريفة المروية عن الصادقين عليهم السلام» - محمد جميل حمود العاملي.



الجهاد الفلسطيني وإيران..
قراءة في تاريخ العلاقة وحاضرها

ثائر الفيومي(*) – خاص بالراصد

الموقف الذي اتخذه الدكتور فتحي الشقاقي مؤسس وزعيم حركة الجهاد الفلسطيني الراحل من الثورة الإيرانية وقائدها الخميني يعدّ وباقتدار نموذجا فذا وجليا على مدى السذاجة والطيبة التي تحلى بها ولم يزل الكثير من قيادات التنظيمات الحركية الإسلامية السنية حيث يتعاطون بمثالية شبه مطلقة مع الشعارات البراقة التي يصدر بها البعض من خارج الدائرة السنية أفكارهم وبرامجهم دون محاولة النظر من هذه القيادات بعمق لمكنون هذه الأفكار وحقيقتها وهو ما يورط بعض هؤلاء القادة السنة دون وعي في دعم وتأييد الكثير مما يمثل في جوهره خطرا حقيقيا على الأصول والثوابت والمنطلقات التي يفترض أن قادة الحركات الإسلامية السنية يؤمنون بها ويدافعون عنها باعتبارها الجزء الأهم فيما يخص الهوية الإسلامية.

الشقاقي وثورة الخميني

على المستوى التاريخي ربما يمكن أن يلتمس البعض من المعنيين بالحركة الإسلامية العذر للدكتور الشقاقي وغيره من الشباب في تلك الحقبة من نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي حيث جاءت الثورة الإيرانية ١٩٧٩م بمثابة تحقيق الحلم الذي طالما كانت تتوق إليه نفوس الكثير من هؤلاء الشباب في ظل ظروف سياسية صعبة عانت خلالها الكثير من عناصر الحركات الإسلامية لا سيما الشباب الإسلامي الويلات حيث التضييق والتهميش والمطاردات والاعتقالات، لذا فقد أعطت الثورة الإيرانية لهؤلاء الشباب الأمل في إمكانية أن تثور الشعوب على الحكام المستبدين بما يملكون من قوة غاشمة وأن الشعوب قادرة أيضا على أن تغير من الواقع الأليم في الاتجاه الصحيح وفق ما كانوا يرون ويتمنون.

وفي هذا الصدد لا يمكن غض الطرف عن أن الدكتور الشقاقي ورفقاءه كانوا آنذاك ممن ينتمون إلى فئة الشباب بما تتسم به هذه الفئة من مثالية فضلا عن التهور الشديد والانحياز الذي ليس له حدود لما يؤمنون به من أفكار وشعارات بل والاستعداد الكامل للتضحية بالنفس والمال من أجل الدفاع عنها ورفع رايتها وبالتالي فقد كان من اليسير جدا أن ينحازوا إلى ما رفعته الثورة الإيرانية من شعارات براقة تتحدث عن مواجهة الاستكبار العالمي والوقوف ضد الظلم والسعي لتحقيق الحرية للشعوب والعمل من أجل إقامة دولة العدل والإسلام وهو ما مثل لهم سحرا بهرهم ورفع من معنوياتهم.

كما تزامنت الثورة الإيرانية مع اتساع الفجوة بين بعض الشباب الإسلامي وجماعة الإخوان المسلمين التي كانت الأهم والأكبر آنذاك إذ رأى هؤلاء الشباب أن الكثير من مواقف ورؤى الجماعة إزاء القضايا الإسلامية المحورية وخاصة القضية الفلسطينية قد أصابها الجمود فلم تعد تتناسب مع طموحاتهم وتطلعاتهم وهو ما جعل لدى هؤلاء الشباب الاستعداد النفسي والحركي للعمل

(*) كاتب مصري.

في إطار جديد يقفز فوق الأطر الخاصة بجماعة الإخوان المسلمين.

ولقد عضد من ذلك كله أن هؤلاء الشباب لم تكن لديهم الدراية أو المعرفة الكاملة بحقيقة الشيعة ونواياهم إذ كان ما ارتكبه الشيعة في تاريخ الدولة الصفوية وما قبل ذلك جزءا من الماضي الذي ربما قرأه بعضهم وتجاهله البعض الآخر وهو ما لم يكن حاضرا بقوة في أذهانهم عند تقييمهم لأية تجربة شيعية حاضرة أو معاصرة خاصة وأن الخميني الشيعي الذي يعد قائدا للثورة الإيرانية نجح وإلى حد كبير في أن ينتج عددا من الأدبيات التي خدع بها البعض حيث أوهمهم بإمكانية تجاوز الخلاف السني الشيعي وأن الهدف من دعوته هو الإسلام وليس الطائفة الشيعية.

ولعل ما سبق هو ما يفسر إسراع العديد من شباب الجماعة الإسلامية المصرية التي تأسست في سبعينيات القرن الميلادي الماضي أيضا إلى الإعلان عن تأييدهم ودعمهم للثورة الإيرانية الخمينية وإن كان هذا الموقف تغير لاحقا بعد ما تبين لهؤلاء الشباب أن الأمر لم يكن وفق ما تصوروه.

ما بعد الشقاقي

بطبيعة الحال لا يمكن التماس ما تم سرده في السطور السابقة كأعذار لموقف أعضاء وكوادر حركة الجهاد الفلسطيني في الوقت الحالي من الدولة الإيرانية الخمينية فالوضع أصبح مختلفا إلى حد كبير عما مضى زمن الشقاقي ورفقائه بعد أن تكشفت الكثير من الحقائق التي كانت خافية إلى حد ما والتي تأكدت يوما بعد يوم ومن ثم فلم يعد ثمة مجال للادعاء بالقول بأن الأمور ليست بالوضوح الكافي الذي يرقى لأن تبني الحركات والتنظيمات السياسية مواقفها ورؤاها على أساسها.

فعلى المستوى العملي أبانت مواقف وتحركات الدولة الإيرانية طيلة أكثر من ثلاثين عاما عن وجهها الحقيقي وبدا جليا أن الأهداف الحقيقية للثورة الخمينية ليست إلا استعادة لمواقف «الشعوبيين» في تاريخ الدولة الإسلامية حيث عملت بعض الأجناس غير العربية على استعادة أمجاد قومياتها اعتقادا بأن الإسلام محا هذه الأمجاد، ويرفع من قدر العرب ويعلي منهم على حساب بقية الأجناس.

كما ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الثورة الخمينية لم تكن إلا لصالح الطائفة الشيعية وليس لصالح الإسلام كما ادعى الخميني ومَن حوله أو كما ظن المخدوعون فيه وفي شعاراته إذ يكفي للمرتاب في ذلك أن يقوم بعملية حصر ورصد لأهم المواقف الإيرانية طيلة هذه الفترة التاريخية حيث ستكون النتيجة الحتمية التي يخرج بها أن إيران بالفعل ومنذ ثورتها الخمينية لم تكن إلا شوكة في حلق المشروع الإسلامي بل إنها كانت السبب الرئيس وراء التوترات القائمة في المنطقة وأن ما تدعيه من إعلانها عن دعم المقاومة ضد الاستكبار العالمي ليس إلا أحد وسائلها الخبيثة والماكرة لتوسيع نفوذها المعنوي في المنطقة العربية والإسلامية السنية فيما أن غرضها الأساسي هو تحقيق مآربها التي لا تتوقف عند حدود بناء دولة قوية، فالقوة المعنية عند أبناء ثورة الخميني هي بناء الدولة الفارسية التي ترى - ضمن ما ترى- أن الخليج العربي ما هو إلا خليج فارسي.

والشاهد أن ما كان يمكن أن نمرره ونفوته للشقاقي ولمن عاصره من الشباب الإسلامي لا يمكن بعد التجربة الإيرانية المريرة أن نقبله من قيادات وعناصر حركة الجهاد الفلسطيني بل إن الواجب العقدي والسياسي يفرض علينا أن لا نكف عن توجيه النقد واللوم في محاولة دائمة ومتكررة للتقويم والإرشاد لعل أن يكون في ذلك النفع والإفادة.

الجهاد ومحددات العلاقة

وما يهمنا في هذه السطور هو استقراء طبيعة العلاقة اليوم بين حركة الجهاد وإيران والنظام السوري بقيادة بشار الأسد على خلفية اندلاع الثورة السورية منذ أكثر من عامين ونصف العام إذ أن هذه القرءاة كفيلة بأن تكشف عن مسار علاقة الجهاد بإيران وما طرأ عليها من تطورات.

والسؤال الذي يطرح نفسه بلا مقدمات.. هل حدث تطور أو تغيير في علاقة الحركة بإيران وحلفائها المتمثلين في نظام سوريا وحزب الله اللبناني؟

والحقيقة أن الإجابة على السؤال تلزمنا أن نمر مرورا

سريعا على محددات هذه العلاقة والتي تتمثل في الآتي:

١- أن الكثير من حركات المقاومة الفلسطينية الإسلامية وغير الإسلامية ومن بينها حركة الجهاد الفلسطيني تستشعر بأنها مدينة بالفضل للدولة الإيرانية وحلفائها نظير الدعم المادي والسياسي الذي تقدمه إيران وحلفاؤها لهذه الفصائل حتى أن النظام السوري استضاف أغلب قيادات هذه الفصائل الفلسطينية للإقامة على الأراضي السورية في الوقت الذي تخلت فيه أغلب البلدان العربية والإسلامية السنية المنوطة للقيام بهذا الدور عن هذه الفصائل.

٢- أنه لا يمكن مطلقا تجاهل العلاقة التاريخية بين حركة الجهاد ومؤسسها الدكتور الشقاقي وبين الدولة الإيرانية وثورة الخميني إذ تركزت أغلب كتابات الشقاقي في بداية حياته النضالية على الثورة الإيرانية وكان كتابه «الخميني: الحل البديل» من أوائل الكتب التي كتبت حول هذه الثورة حيث صدر بعد أيام من وقوعها عام ١٩٧٩م الأمر الذي ظل وسيظل ربما نقطة فارقة في علاقة الحركة بالدولة الإيرانية حيث من الطبيعي أن يتأثر أعضاء وعناصر حركة الجهاد المنضوون تحت لوائها لاحقا بكتابات المؤسس الأول للحركة خلال مدارستهم لهذه الكتب التي ولابد ستترك انطباعا إيجابيا حول الثورة والدولة الإيرانية بغضّ النظر عما يمكن أن يتكشف لهؤلاء الأعضاء فيما بعد، بل وبغضّ النظر عن موقف الشقاقي نفسه من إيران والخميني قبل اغتياله بفترة قريبة.

٣- أن حركة الجهاد تحاول بشتى الطرق أن تتميز عن بقية الفصائل الفلسطينية الإسلامية وخاصة حركة «حماس» وذلك عبر الترويج بأن راية الجهاد والمقاومة هي الهدف الأسمى لها بعيدا عن الدخول في منافسات سياسية أو السعي للسلطة في ظل الاحتلال ومن ثم فهي تصطف مع جميع داعمي ومؤيدي المقاومة ضد الاحتلال بعيدا عن الاصطفاف العقائدي أو المذهبي وهو ما يفسر عدم خوض أعضاء حركة الجهاد للانتخابات البرلمانية أو البلدية التي أجريت في قطاع غزة قبل سنوات حيث رأت الحركة أن الصراع السياسي سيبعدها عن رسالتها الأولى.

٤- أن حركة الجهاد حاولت أن تنأى بنفسها عن التطرق للحديث عن الطموح الإيراني بشأن استغلال الحركة وغيرها في نشر المذهب الشيعي في الأراضي الفلسطينية وبين الفلسطينيين بل إن الحركة لم تتوقف أمام عناصرها وأعضائها الذين افتتنوا ووقعوا في فخ التشيع وهو ما جعل من الحركة نموذجا آخر للحركات التي تقدم السياسي على العقدي.

نتيجة لما سبق فإن علاقة الجهاد بإيران لم تختلف كثيرا عما كانت عليه أيام الدكتور فتحي الشقاقي بل إنه يمكننا القول بأنها توثقت بشكل أكبر عما كانت عليه نظرا لاعتبارات أخرى منها ما يتعلق باللقاءات الدورية والمتكررة التي تجمع بين قيادات الحركة في الخارج وعلى رأسهم الدكتور رمضان شلح خليفة الدكتور الشقاقي والأمين العام للحركة والذي معلوم عنه قربه الشديد من القيادات الإيرانية ومنها ما يتعلق بالدعم المادي الذي لم يعد خافيا من قبل إيران للفصائل الفلسطينية وعلى رأسها حركة الجهاد وهو الدعم الذي يمثل العمود الفقري للإنفاق على أنشطة الحركة وفاعلياتها في الداخل والخارج.

شواهد ومظاهر

ليس أمرا صعبا تحديد بعض المظاهر الدالة على متانة العلاقة بين حركة الجهاد من ناحية والدولة الإيرانية وحلفائها، خاصة نظام بشار الأسد، من ناحية أخرى فهي شواهد حاضرة في العديد من المجالات السياسية والإعلامية، ويمكن أن نشير إلى بعضها ومنها:

أن موقف الحركة من أحداث الثورة السورية لم يكن ليخرج عن حدود الموقف الإيراني والموقف الأسدي حيث لم يتردد الأمين العام للحركة في بيان له[1] من أن يؤكد أن الحل في سوريا هو الحل السياسي الذي يحقن الدماء في حين يدرك هو شخصيا جيدا أن نظام الأسد لم يكن ليرحم الثوار السوريين السلميين في بداية اندلاع الثورة حيث نصب لهم المذابح في كل ركن من أركان سوريا وهو ما اضطرهم في نهاية الأمر إلى اللجوء للسلاح للدفاع عن أنفسهم في مواجهة حرب الإبادة التي كانوا يتعرضون لها.

---

(١) http://www.youtube.com/watch?v=nGgUZ1-ozCw

وكان موقف الجهاد دافعا لأن يتقول عليهم البعض بالقول بأن مقاتلين من الحركة قد شاركوا مع قوات بشار الأسد في مواجهة عناصر الجيش الحر السوري وأن هذه المشاركة جاءت في إطار رد جميل الدعم السوري لحركة الجهاد.

وعلى الرغم من أن الحركة نفت مرارا وتكرار مثل هذه الأنباء إلا أنها – أي هذه الأنباء – بقيت مؤشرا على طبيعة العلاقة بين الحركة والنظام السوري حليف النظام الإيراني.

ولا تقل دلالة تصريحات بعض قيادات الحركة عما ذهب إليه شلح ففي حوار أجرته معه قناة العالم الإيرانية أكد ناصر أبو شريف ممثل الحركة في طهران أن هناك هجمة كبيرة على المقاومة في المنطقة لأنها المؤثرة في المشروع العالمي وقال إن المعادلة أنه يجب أن يكون الكيان الصهيوني أقوى من محيطه الإسلامي يعني من فلسطين وحتى إندونيسيا فذلك يستهدف المقاومة في جنوب لبنان والمقاومة في قطاع غزة، وإيران التي تقف خلف المقاومة بكل قوة وبسالة، وسوريا التي لها دور أساسي في محور المقاومة مشيراً إلى أن كل هذه القوى هي المؤثرة في موازنة الصراع ولذلك يجب تحطيمها وإضعافها لأنها تشكل معادلة خطيرة بالنسبة للكيان.

ونوه أبو شريف إلى تصنيف الكيان إيران على أنها الخطر الإستراتيجي الأول عليه لتبنيها مشروع المقاومة وقال: إن العملية ليست صهيونية فقط وإنما يدعمها مشروع عالمي كبير حيث تقف أميركا خلف الكيان وإن هناك دولاً كثيرة تابعة لأمريكا إضافة إلى ما وصفها بمراكز الشرطة الموجودة في المنطقة كلها تحاول أن تقوم بدور إضعاف المقاومة من خلال تشتيتها وضربها وخلق الفتن الطائفية.

وأوضح أن أفضل مشروع يعمل عليه الكيان هو خلق الفتن الطائفية في المنطقة عبر تحويل إيران وحزب الله والمقاومة الفلسطينية والنظام السوري إلى عدو وبالتالي ضرب الأمة ببعضها، والكيان هو الطرف المستفيد لأن إضعاف الطرف الآخر يجعله قوياً في المنطقة مشيراً إلى أن كل ما يحيط بالكيان جعله مشغولاً بمشاكل داخلية لتمرير مشروعه وهو ضرب المقاومة وإلهاؤها عن هدفها الأساسي.

ويعد ما اتخذه إعلام الحركة فيما يخص الموقف من الثورة السورية مؤشرا آخرا يحمل نفس الدلالة السابقة إذ هو يلتزم الصمت المطبق حيال تطورات الوضع في سوريا رغم إدراك قادة الحركة أن هذا الصمت لا يعدو عن كونه موقفا سلبيا من الثورة السورية التي تنشد الحرية وتتطلع إلى القضاء على الفساد والاستبداد الذي عانته سوريا طيلة حكم آل الأسد.

غير أن المؤسف حقا أن هذا الصمت إزاء ما يرتكب في سوريا كان يقابله حالة من الإجلال والتقدير تجاه بعض رموز حلفاء إيران كنظام سوريا وحزب لله حيث تصويرهما باعتبارهما رمزين للمقاومة ضد العدو الصهيوني وهو ما يرسخ في الأذهان صحة وصدق ما يحاول الأسد ورفيقه حسن نصر الله الترويج له حيث القول بأن ما تتعرض له سوريا جزء من مخطط إمبريالي لإضعاف المقاومة ضد «إسرائيل».

ويمكننا رصد عدد من العناوين سريعا مما ورد على موقع «سرايا القدس» - الموقع الحربي لحركة الجهاد – إذ من بين هذه العناوين التي تخص حلفاء إيران مثلا: «السيد نصر الله: «لن نتخلى عن فلسطين» و«العدو يعزز قواته على الحدود السورية وعينه على حزب الله» و«العدو يترقب وصول صواريخ S300 إلى سوريا» و«حسن نصر الله: نكبة ٤٨ هي نكبة كل العرب والمسلمين» و«نتنياهو: سنعمل على منع وصول السلاح من سوريا إلى حزب الله» و«حزب الله ٢٠١٣.. الحزب الذي لم تعرفوه من قبل» و«حزب الله: جاهزون لإلحاق الهزيمة والنكبة الكبرى بالكيان الصهيوني» و«يعالون يزعم: سنواصل منع نقل الأسلحة إلى حزب الله».

ومن بين العناوين الخاصة بإيران: «روحاني: الكيان الصهيوني جرح يجب إزالته» و«نتنياهو يدعو لتشديد العقوبات على إيران» و«إيران: لدينا آلاف الصواريخ الجاهزة للإطلاق باتجاه مصالح العدو الحيوية».

والحقيقة أن مثل هذه العناوين وما تتضمنه أسفلها لا يحتاج إلى كثير تعليق فالخلاصة هي أن سوريا وحزب الله ومن قبلهما إيران هم في نظر حركة الجهاد حماة

المقاومة ضد الكيان الصهيوني وهو ما يحقر بالطبع من شأن الانتقادات والمواقف السلبية تجاه كل منهم.

ومن أهم وأخطر هذه الشواهد ما ذكره لي بشكل شخصي أحد معدي البرامج من العاملين في قناة «فلسطين اليوم» التابعة لحركة الجهاد الفلسطيني والتي تحظى بنسبة مشاهدة عالية لدى الفلسطينيين في الداخل حيث أكد لي هذا المصدر أنه ممنوع عليهم استضافة بعض الرموز السياسية والفكرية في برامجهم المختلفة.

وأكد هذا المصدر أن أغلب الممنوعين من الظهور على شاشة القناة هم ممن يحسبون على التيار السلفي أو الأحزاب الإسلامية التي تتخذ موقفا منتقدا لإيران وسياساتها فضلا عن كل الشخصيات الداعمة بقوة للثورة السورية والجيش الحر.

ولا يعني ذلك إلا أن صمت إعلام حركة الجهاد هو محاولة للتحايل على الموقف الحقيقي للحركة مما يحدث في سوريا حتى لا تفقد الدعم الشعبي العربي والإسلامي تجاهها كونها واحدة من فصائل المقاومة الفلسطينية ومن ثم فإن الأولى بالقبول هو أن هذا الصمت الإعلامي ربما جاء بالتوافق فيما بين قيادات الحركة والدولة الإيرانية وحلفائها كشكل من أشكال حفظ ماء وجهها وتفادي اتهامها بالتبعية لطهران.

في الحاجة لاستراتيجية مضادة للتشيع بالجزائر

بوزيدي يحيى(*) – خاص بالراصد

كشفت الحركات الاحتجاجية الثورية في المنطقة العربية، والواقع الجديد الذي أحدثته عن حراك منظم للمتشيعين في بعض الدول العربية، وهذا الحراك والنشاط يدلل على أننا لسنا أمام حالات فردية متناثرة ومعزولة هنا وهناك، وإنما أمام حراك - بغض النظر عن الجدل حول حجمه- منظم يوجد داخله شكل من أشكال النسق الاجتماعي - على الأقل- من خلال الرموز والأتباع.

(*) كاتب جزائري.

ومن جهة أخرى فإن اتجاه المتشيعين إلى تشكيل هيئات سياسية واجتماعية والتعبير عن أنفسهم كمكوّن «أقلوي» ضمن مجتمعاتهم كما في حالة تونس ومصر[1]، إلى جانب مواقفهم السياسية التي تَسبح في فلك السياسة الإيرانية إذا ما ربطت بالحديث المتواتر في هذه الدول وغيرها عن دور فاعل للسفارات الإيرانية في العملية، وتوجيه قياداتها، فإن هذا يشي بوجود استراتيجية من طرف هذه القوى لنشر التشيع.

وقد برزت الكثير من الفعاليات المناهضة للتشيع في هذه الدول، ودعوات لوضع استراتيجيات لمجابهة المد الشيعي، والسؤال الذي يطرح في الحالة الجزائرية يتمثل في وجود استراتيجية لنشر التشيع في الجزائر من عدمها؟ وإذا كانت موجودة فهل هناك عمل في الاتجاه المعاكس يرتقي إلى مستوى حجم التهديد أم لا؟

ملامح استراتيجية نشر التشيع في الجزائر

لا يختلف التشيع في الجزائر من حيث آليات انتشاره عن الدول العربية الأخرى، باعتبار أن الجهة التي تقف وراءه واحدة، وأهم آلية للانتشار من خلال الجهود الفردية في الوسط الاجتماعي للمتشيعين من أقارب وأصدقاء وغير ذلك، وهذا المستوى لا يعبر عن استراتيجية لنشر التشيع وإنما يعكس مجرد همّ دعوي يحمله كل فرد لمعتقده، يتضاعف في الحالة التي يكون فيها متبنيا لمعتقد يختلف عمّا هو سائد في مجتمعه حيث يتحمس لمعتقداته الجديدة ويسعى لنشرها.

هذا المستوى من النشاط يدخل ضمن النشاط الروتيني للمتشيعين وهو ما يتوقف عنده المقللون من خطورة الظاهرة، غير أن التكتل في هياكل مختلفة في

(١) ظهرت بعد ثورة ٢٥ يناير في مصر العديد من الحسينيات الشيعية، وسعت بعض القيادات لتأسيس حزب ناطق باسمها هو حزب التحرير، وأسس المتشيعة في تونس عدة جمعيات منها جمعية «أهل البيت الثقافية» التي يرأسها عماد الدّين الحمروني، وجمعية «المودة الشيعية» ويرأسها عبد الحفيظ البناني وجمعيّة الرابطة التونسيّة للتسامح ويرأسها صلاح الدين المصري، وكانت هناك محاولة لتأسيس حزب سياسي تحت مسمى «حزب اللّه التونسي»، وبعد رفض السلطات التونسية الطلب غير اسمه إلى حزب الأمة. كما أسسوا جريدة ناطقة باسمهم وهي «الصحوة التونسية»، وكانت قد ظهرت أيضا ثلاث جمعيات شيعية في المملكة المغربية وهي: الغدير، البصائر، التواصل.

تونس ومصر كما سبق الإشارة لم يأتِ من فراغ وإنما هو مرحلة تالية للتواصل بين المتشيعين في وقت سابق. وهو ما لا تختلف عنه الساحة الجزائرية أيضا، حيث نجد حلقة تواصل بين المتشيعين في مختلف الولايات الجزائرية، إذ يلتقون بشكل دوري في مناسبة عاشوراء، أو من خلال شبكة الإنترنيت التي تشكل فضاء للتواصل والتكتل بشكل أسرع وأكبر، ومنتديات شيعة الجزائر كانت أقدم فضاء للتواصل بين المتشيعين، ولا شك أنهم يواكبون التطور من خلال مواقع التواصل الاجتماعي ويستغلونها في نشاطهم، إذ تتواجد الكثير من المجموعات لشيعة الجزائر، بعضها مفتوحة وبعضها مغلقة.

هذا الانتقال من المستوى الفردي إلى المستوى الجماعي المحلي ثم المستوى الجهوي وممكن القول حتى الوطني للنشاط الشيعي الذي لم يجد الزمان المناسب كما في تونس ومصر حتى يتأطر في هياكل اجتماعية وسياسية مشابهة - وإن كانت هناك بعض المحاولات لتأسيس جمعيات في العاصمة ومدن مختلفة- ، كل هذا يؤشر على وجود مَن يخطط للعملية ويوجهها، ولا يستبعد أن تكون هذه الجهة هي السفارة الإيرانية أو على الأقل ترتبط معها بعلاقة مباشرة أو غير مباشرة.

والمقصود بالجهة هنا «الرموز المحلية المتشيعة» والتي مضى على تحولها الديني بين العقدين والثلاثة، والتي أصبحت مترابطة فيما بينها، واستطاعت أن تنسج علاقات مع إيران والمرجعيات الشيعية بشكل خاص في قم حيث يدرس هناك الكثير من المتشيعين، قدرت عددهم جريدة الشروق في سنة ٢٠١٠ بخمسين طالبا وهو رقم مرجّح للارتفاع، هذا إذا لم يكن أكبر خاصة عند الأخذ بعين الاعتبار وجود حوزات أخرى في لبنان وسوريا وغيرهما من الدول[١].

دور السفارة الإيرانية

طبعا إيران تحاول دائما نفي علاقتها بنشر التشيع في الجزائر أو غيرها من الدول السنية[٢]، حيث يتهم المتابعون للموضوع المراكز الثقافية التابعة للسفارات الإيرانية بالقيام بدور فعال في هذا الإطار.

لا بد من الإشارة بداية إلى أنه انطلاقا من دستور الجمهورية الإسلامية وما قرره حول طبيعة النظام الإيراني إضافة إلى الخلفية الأيديولوجية للنخبة الحاكمة في إيران وهي نخبة دينية شيعية، فإنه يتجلى بكل وضوح تبنيها لنشر القيم الدينية الشيعية بالخارج، ولا شك أن النشاط الثقافي الذي تقوم به كل السفارات الإيرانية كما هو متعارف عليه في الأعراف الدبلوماسية ذو أبعاد دينية تعكس طبيعة أو ثقافة المجتمع كما يتصورها النظام الحاكم، ويستحيل أن يكون نشاط هذه المراكز الثقافية خارج الإطار الشيعي ونشر معتقداته.

والوقائع والدلائل تبين أن السفارات الإيرانية لا تقف موقف المتفرج والمنتظر من التشيع، وإنما تعمل على إعداد الخطط والاستراتيجيات للتغلغل أكثر ونشره خدمة للهدف الأسمى الذي وجدت الجمهورية الإسلامية لأجله وهو تهيئة الظروف لظهور المهدي من الناحية الأيديولوجية، أو توظيف المتشيعين لما يخدم مصلحة النظام الإيراني من الناحية السياسية.

وكان تقرير لموقع (ميدل إيست أون لاين) تحدث عن وجود ما يسمى بوحدة «كتامة»، مهمتها إعداد خطط تحت إشراف مكتب المرشد العام لنشر التشيع الإثني عشري الجعفري في المغرب العربي. وتتضمن هذه الخطط الدعم المعنوي والمادي لشبكات تشييع منتشرة في المغرب العربي وتكثيف النشاط التبشيري عبر أوروبا حيث تستهدف الجاليات المغاربية في فرنسا وبريطانيا وألمانيا[٣]. وأشار التقرير أيضا إلى أن البحرين تعد مركز نشاط تبشيري للتشيع؛ إذ يتم منها إرسال مواد كثيرة عبر البريد

(١) ٥٠ طالبا جزائريا يتشيعون ويعتكفون في قم الإيرانية، جريدة الشروق، ٢٠١٠/٠٥/١٠، على الرابط:
http://www.echoroukonline.com/ara/?news=٥١٨٤٥

(٢) بعد نشر جريدة الشروق مقالات الأستاذ أنور مالك عن علاقة إيران بالجماعات المسلحة ردت السفارة الإيرانية بتكذيب ما ورد من معلومات، وكما جرت العادة اعتبرت ذلك يصب ضد وحدة الأمة الإسلامية.

(٣) عبد العزيز الخميس، كتامة ذراع التشييع الإيراني في المغرب العربي، ميدل إيست أونلاين، ٢٠١١/٠٩/٠٨، على الرابط:
http://www.middle-east-online.com/?id=١١٧٠٩٦

لدول المغرب العربي، ويتم الطبع والتصميم وإنشاء المواقع الإلكترونية الموجهة للمغرب العربي بتمويل يأتي عبر أحد آيات المجلس العلمائي في المنامة وهو عيسى قاسم، والذي تشير التحقيقات الجزائرية إلى أنه يتسلم الأموال المخصصة لنشاط «كتامة» في البحرين من طهران[1].

كما توفرت معلومات مهمة عن استخدام إيران لجمعية شيعية كويتية تتستر وراء مكتبة «العرفان» تستعمل وحدة «كتامة» هذه المكتبة لترويج المذهب الشيعي في الجزائر والمغرب(٢).

صدى هذا النشاط الشيعي التبشيري تجلى بردود الأفعال المغاربية في مواجهته بداية بالمملكة المغربية التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع طهران بسبب هذه النشاطات، وفي تونس اتهمت الرابطة التونسية لمناهضة المد الشيعي المركز الثقافي الإيراني التابع لسفارة إيران بنشر المذهب الشيعي في تونس وطالبت الحكومة التي تقودها حركة النهضة الإسلامية بإغلاقه فورا وأوضحت أن هذا المركز يعمل بالاشتراك مع الرابطة التونسية للتسامح على نشر التشيع في تونس ولفتت إلى أن هذه الجمعية «في ظاهرها منظمة ثقافية وفي باطنها عقائدية مندسة في المجتمع المدني (التونسي)، ذات ولاء لدولة إيران وأهدافها معادية لهوية تونس (الدولة) السنية المالكية»[3].

وفي ليبيا حذر مفتيها صادق الغرياني من النشاط الإيراني لنشر التشيع حيث كشف عن متابعة لتحركات وأنشطة شيعية لأشخاص إيرانيين دخلوا ليبيا تحت عدة مزاعم، بينما كان هدفهم الرئيسي هو نشر المذهب الشيعي بين الليبيين السنة، مستغلين حاجة الناس، واضطراب الأمن، وإعادة ترتيب الأوضاع الليبية بعد الفراغ الذي أحدثه غياب ما سمي باللجان الشعبية التي كانت تتحكم في كل شيء في الداخل الليبي[4].

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) نوميديا نيوز، ٢٠١٢/٠٨/٢١، على الرابط:
www.numidianews.com/ar/article~35948.html?_featured=7dd701e074e9850f9d6d1b52332b0dee

(٤) نشاط شيعي مكثف في ليبيا، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ٢٠١٢/٠٦/٠١، على الرابط:
http://taseel.com/display/pub/default.aspx?id=1886&mot=1

أما في السياق الجزائري فهناك مؤشرات تعكس ملامح لاستراتيجية في نشر التشيع يستحيل أن تأتي من فراغ، ولاشك من وجود توجيه مباشر أو غير مباشر من طرف ما، وهذا الطرف يقبع في طهران أو قم، وفي الحالتين لا بد من المرور على السفارة الإيرانية، ولعل أهم المؤشرات ما يلي:

١- الاختراق:

هو سلوك قديم جديد من طرف إيران، أبرز وأخطر أشكاله تلك التي عرضها الأستاذ أنور مالك في كتابه (أسرار الشيعة والإرهاب في الجزائر)، حيث كشف عن اختراقات عديدة للجماعات المسلحة خلال التسعينيات بواسطة متشيعين لهم علاقة مباشرة ووطيدة مع النظام الإيراني وحزب الله[5]، كما كانت هناك محاولات للمتشيعين لاختراق بعض الأحزاب الإسلامية والتنظيمات المجتمعية مثل: الكشافة الإسلامية حيث كُشف عن قيام ثلاثة أفواج كشفية في ولاية باتنة بنشر التشيع هي: الرجاء، والمستقبل، والفلاح، وقامت المحافظة بتجميدها[6].

وعلى إثر الفضيحة صرّح قائد الكشافة الإسلامية نور الدين بن براهم عن إرسال لجنة تحقيق في الموضوع، وأكد على اتخاذ إجراءات وتدابير وقائية صارمة لحماية شباب الكشافة من المد الفكري الخارجي، واعترف في نفس الوقت بغياب المتابعة سابقا لطبيعة نشاط الأفواج الكشفية، وحاول إيجاد تبريرات لها[7]، ليدق تقرير لجنة التحقيق ناقوس الخطر بشأن تواجد التوجه الفكري الشيعي بعد حادثة باتنة، وبأنه منتشر بين عائلات وليس وسط تلاميذ ومرتادي الأفواج الكشفية فقط، ودعا إلى تفعيل منظومة دفاع اجتماعية وقيمية مشتركة لحماية

(٥) لتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع انظر: أنور مالك، أسرار الشيعة والإرهاب في الجزائر، ط١، الجزائر: الشروق للإعلام والنشر، ٢٠١١.

(٦) تجميد نشاط أفواج كشفية تورطت في نشر التشيع، جريدة الشروق، ٢٠١٣/٠٢/٠٢، على الرابط:
http://www.echoroukonline.com/ara/articles/155737.html

(٧) طوارئ لمواجهة زحف المدّ الشيعي داخل الكشافة، جريدة الشروق، ٢٠١٣/٠٢/٠٦، على الرابط:
http://www.echoroukonline.com/ara/articles/156130.html

الهوية الوطنية[1].

كما يعمل المتشيعون على إنشاء جمعيات ثقافية أو خيرية في الظاهر كالدروس الخصوصية أو تحفيظ القرآن، ولكنها في الباطن لنشر التشيع آخرها محاولة تأسيس جمعية في الجزائر العاصمة تحت اسم (حسن الاستقبال)، ثم غيروا الاسم إلى جمعية النور[2]، ونفس السلوك يتكرر في كل المدن خاصة الكبرى منها. نشاط المتشيعين ضمن هذه الأطر سيكون مطية أو وسيلة للوصول إلى مراكز حساسة في الدولة، والخطورة تكمن في عدم القدرة على اكتشاف المتشيعين لممارستهم التقية، وقد يكون المتشيعون الجزائريون أكثر تقية من غيرهم لحساسية المجتمع الجزائري وطبيعة النظام السياسي.

٢- زرع الخلايا:

هناك إجماع بين الباحثين والمتابعين لموضوع التشيع أن بدايته كانت في الستينيات والسبعينيات من خلال الأساتذة المستقدمين من العراق وسوريا وغيرها، وإن كان نشاط هؤلاء في هذه المرحلة نشاطا دعويا فرديا، إلا أنه بعد نجاح الثورة الإيرانية يرجح حدوث نوع من التنسيق خاصة مع دخول إيرانيين ولبنانيين على الخط عقب الثورة مهمتهم تصدير فكر الخميني، حيث كان لهم نشاط قوي في الجامعات الجزائرية بين الطلبة.

كما أشارت التقارير أيضا إلى وجود خلايا شيعية في دمشق وتحديدا في مقام السيدة زينب للتنسيق بين المتشيعين، وقد أثيرت قبل سنوات قضية رجل الأعمال اللبناني «صلاح عز الدين»، المرتبط بحِزب الله، والذي صرَّح للقضاء اللبناني عن خسارته لمبلغ قيمته ٢٠٠ مليون دولار في نشاطات تجاريَّة بالجزائر. والذي كان من نتائج فضيحة إفلاسه فتح الأمن الجزائري تحقيقا حول خلية للحزب في الجزائر[3]، وبكل تأكيد فالحديث عن حزب الله هو في النهاية حديث عن إيران كون الحزب لا يَعدُ أن يكون فرعا من فروع الحرس الثوري الإيراني. ومن المعلوم الدور الكبير لمؤسسة الحرس الثوري في النظام الإيراني ونشاطها الخارجي وسعيها لتأسيس فروع وخلايا حيثما تتاح لها الفرصة والإمكانيات.

وفي هذا السياق أشارت التقارير إلى محاولات لتأسيس (حزب الله المغاربي) ليضم متشيعين من كل الدول المغاربية، ويرأسه المتشيع تيجاني السماوي من تونس[4]. وبغضّ النظر عن وجود هذا الفرع لحزب الله من عدمه فإن نشاطات كل المتشيعين لا تختلف في النهاية من حيث المقاصد عن دور ومهام حزب الله. وعملية الاختراق التي أشرنا إليها سابقا هي مرحلة من مراحل زرع الخلايا.

٣- التوظيف:

تعمل إيران جاهدة على توظيف المتشيعين لتحقيق مشروعها في الدول العربية، وأفضل وسيلة لتمريره وتجاوز العقبات التي تحول دون ذلك جعل أصوات عربية في الواجهة للدفاع عنها سياسيا وأيضا لنشر التشيع، وهناك الكثير من الأسماء المتشيعة أو ما يطلق عليهم بالمستبصرين، لهم حضور قوي في الإعلام الشيعي عامة، والإيراني خاصة، ولهؤلاء برامج في قنوات إيرانية، وطريق هؤلاء في رحلة تشيعهم حتى استقرار المقام بهم في قُم أو بيروت لا شك أنه مرّ أيضا في مرحلة من المراحل عبر السفارة الإيرانية.

ومن الأمثلة على ذلك: عبد الباقي قرنة، المقدم في فضائية الكوثر، ويحيى أبو زكريا الذي عمل في فضائيات إيرانية عديدة، وهو حاليا يعمل إلى جانب المتشيع غسان بن جدو في قناة الميادين التي سخّرت لإجهاض الثورة السورية، وأصبح يحيى أبو زكريا ضيفا دائما على قنوات النظام السوري يمارس التشبيح الإعلامي. وأيضا الكاتب الصادق سلايمية الذي نشر

(١) الكشافة الإسلامية تحذّر من المدّ الشيعي، جريدة الشروق، ٠٨/٠٢/٢٠١٣، على الرابط: http://www.echoroukonline.com/ara/articles/156319.html

(٢) نور الدين المالكي، برنامج ساعة مغاربية على قناة وصال، تاريخ بث الحلقة، ٢٠١٣/٧/١٩.

(٣) بوزيدي يحيى، خلايا حزب الله تهويل إعلامي أم تهديد حقيقي، موقع = الألوكة، ٢٠١٠/٠٤/٠٦، على الرابط: http://www.alukah.net/culture/٠/١٩٩٣٩/

(٤) أنور مالك، أسرار الشيعة والإرهاب في الجزائر، ط١، الجزائر: الشروق للإعلام والنشر، ٢٠١١، ص ١٢٦.

العديد من المقالات في جرائد جزائرية مختلفة من ضمنها جريدة (البصائر) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت تدور كلها حول الطعن في الصحابة والانتقاص من السنة وإعلاء شأن الشيعة، وانبرى الكثير من الفضلاء للرد عليه وتفنيد ما اجترحه من أباطيل، من بينهم الدكتور مختار حمحامي، ونور الدين المالكي، وحاليا تدور كتاباته في نقد الحركة الإسلامية، وحتى التي يتناول فيها القضايا الدولية فإنها تتماشى مع السياسة الإيرانية.

والجدير بالذكر هنا أن هذا الكاتب كان عضوا بارزا في حركة الإصلاح الوطني، وهي حزب إسلامي، واتهم بقضية أخلاقية لما كان يرأسها عبد الله جاب الله الذي كانت تربطه به علاقات جيدة، كما شارك في مؤتمر الصحوة الإسلامية في طهران في سبتمبر ٢٠١١ وألقى كلمة هناك، وعلى هامشه شارك في برنامج على قناة الكوثر مارس فيه كغيره من المتشيعين مهام الطابور الخامس في الدعاية لإيران، وهو الملتقى الذي حضره بالمناسبة أبو جرة سلطاني، زعيم حركة مجتمع السلم السابق، والسؤال الذي يطرح: لماذا اختيار سلايمية دون غيره؟ ومن اختاره غير السفارة الإيرانية؟

وقد بدأت تبرز بعض الأسماء الدينية المتشيعة مثل فضيل الجزائري. وعموما فإن المتشيعين الذين يدرسون في قم وغيرها من المراكز الدينية هم مشاريع دعاة (استبصار) على القنوات الإيرانية والشيعية، وهذا سلوك يحمل رسالة خطيرة للمجتمعات العربية والمغاربية خاصة.

٤- التسويغ:

محاولة إيجاد مسوغات لوجود التشيع تاريخيا من خلال الحديث عن دولة الأدارسة كأول دولة لآل البيت، أو الدولة الفاطمية، أو اللعب على الوتر العرقي بالحديث عن أن أصل البربر شيعي، ما يعني أصالة التشيع في شمال إفريقيا. أو العزف على وتر الأشراف وآل البيت الذين هاجروا إلى هنا بسبب المآسي التي لحقت بهم من طرف السلطة الأموية السنية ما يعني بمفهوم المخالفة أن أشراف المغرب يخونون أجدادهم.

وأيضا من خلال الأضرحة وزيارتها والتي تعتبر أيضا أحد أهم المداخل للتشيع باعتبارها غطاء لممارسة طقوسهم وأيضا لكسب الطرق الصوفية، على غرار ضريح سيدي عبيد وضريح موسى البهلول[1]، وأهم ضريح هو ضريح خالد بن سنان العبسي المتواجد بمدينة سيدي خالد بولاية بسكرة وكان مكان احتفالهم بعاشوراء، وسبب اختياره وجود ضريح أحد الأولياء وهو عبد الرحمن بن خليفة الذي ينحدر نسبه لآل البيت[2].

مثل هذه مبررات لديهم على قِدم التشيع في البلاد ومسوغ لنشره وانتشاره، وليس بالضرورة أن يكون المسار أحاديا فقد يجتمع مدخل أو مدخلان وربما جميعها، ويلقن المتشيعون كل هذه الأفكار لطمأنتهم لمعتقدهم الجديد وتثبيتهم عليه.

إرهاصات الاستراتيجية الموازية

على عكس العقود السابقة التي كان لا يلقى فيها بال لكل الأصوات والدعوات المحذرة من خطر التشيع، حدث تحول في قراءة هذه الظاهرة يأتي في مقدمتها موقف وزارة الشؤون الدينية التي كانت تنفي من قبل أي خطر شيعي وأصبحت الآن تعتبره تهديدا للهوية الجزائرية، وإن كان هذا الموقف يحمل في طياته متناقضات عديدة بداية بعدم وجود مبررات تفسر التحول المفاجئ في الموقف خاصة وأن الرجل الأول في الوزارة كان لا يقلل من هذا الخطر فحسب وإنما ينفيه، مرورا باتهام اللاجئين السوريين بنشر التشيع مع عدم وجود أي رابط منطقي بين الأمرين، وانتهاء بالزج بالسلفية إلى جانب التشيع كتهديد للمرجعية الدينية الوطنية، رغم أن الوزير يعلم أن هذا الاتجاه موجود في مساجد الوطن، وهو مكون اجتماعي قد تكون عليه بعض المؤاخذات كغيره من مكونات المجتمع لكنه في الأخير مكون طبيعي.

ولكن مع كل هذا فإن الاعتراف الرسمي بالتشيع كخطر على المرجعية الوطنية بداية في الطريق الصحيح تحتاج إلى ترجمة عملية لها، خاصة وأنه إذا سلمنا جدلا بأن التشيع - مثله مثل السلفية- تهديد، فإن الوزارة اتخذت ضدها بعض الإجراءات في هذا الإطار والتي

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

وصفتها الصحافة بـ (الوصايا العشر في رمضان) في حين لم تقم بأي خطوات لمواجهة خطر التشيع!

وبإمكان الوزارة أن تقوم بإجراءات عديدة ضد التشيع كتوجيه أئمة المساجد لتخصيص خطبة جمعة عن الشيعة والتحذير منهم خاصة بمناسبة عاشوراء، أو أن تصدر وتوزع كتيبات حول الشيعة أيضا، كما بإمكانها أن ترسل أئمة من أصحاب الكفاءات العالية جدا في الخطابة إلى المناطق التي تشهد نشاطا تبشيريا شيعيا وتحديدا حيث يتواجد بعض رموزهم، حتى لا يبقى الشباب المستهدف مأخوذا بهؤلاء في ظل عدم وجود من يقابلهم من الرموز الدينية المكافئة. ولا شك أن الوزارة كمؤسسة يفترض أنها تملك من الإمكانيات والعقول ما هو أعرف وأكثر تقديرا للمخاطر وكيفية مواجهتها.

من جهتها فإن الحركة الإسلامية أصبحت هي الأخرى تعي بعض الشيء خطورة الشيعة، وإن كانت لم تجعل من خطر التشيع أحد محاور نضالها الديني والسياسي رغم أنه ينافسها في أهم معاقلها وهي الكشافة الإسلامية، وحتى داخل الاتحاد العام الطلابي الحر وإن بشكل أقل، والمؤسف أنها لا زالت تنظر للأمر من زاوية حزبية ضيقة، فبينما سارعت إلى إصدار العديد من البيانات الرافضة للانقلاب العسكري في مصر ونظمت وقفات احتجاجية أمام السفارة المصرية ومقر الأمم المتحدة إلا أنها لم تقم بخطوات مماثلة في الحالة السورية.

بل المؤسف أن رئيسها استقبل - قبل فترة- السفيرَ الإيراني في الجزائر، وأورد موقع الحركة أنهما ناقشا القضايا الدولية، وهنا نتساءل عن الذي قاله معاليه لسعادته حول سوريا؟!، وكان سبق لنا تفصيل تطور موقف الحركة من الأحداث الأخيرة وتمنينا منها أن تقوم بأقل الواجب في هذا الإطار، وهو أقل بكثير مما تقوم به تجاه مصر مع أن الأخير جيد بكل تأكيد[1].

ويبقى الاتجاه السلفي في مقدمة المحذرين والمواجهين للتشيع، ومن خلال المتابعة فإن نشاط هذا الاتجاه في مواجهة الظاهرة رصدناه فيما يلي:

١- النشاط العلمي الروتيني إن صح التعبير للسلفيين واهتمامهم بالعقيدة الصحيحة ونشرها، ومن ذلك عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة وآل البيت، والشُّبه التي يثيرها الشيعة في هذا الإطار، وعقيدة أهل السنة في المهدي المنتظر، والفَرق بينه وبين المهدي المنتظر عند الشيعة، وغيرها من المواضيع العقدية التي تفصّلها كتب العقيدة وبشكل خاص كتاب شرح العقيدة الواسطية للشيخ ابن العثيمين رحمه الله الذي يقرأه ويتدارسه جل السلفيين.

٢- في الدورات العلمية التي ينظمها السلفيون في بعض الأحياء الجامعية يكون هذا الموضوع حاضرا، فمثلا إحدى الدورات التي تسنّى لي حضورها كانت هناك محاضرة تحت عنوان (عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة)، كما أن الدعاة السلفيين في نشاطهم العلمي أيضا يتطرقون في سياق حديثهم إلى خطر التشيع وينبّهون ويحذرون منه.

٣- إصدار عدد خاص من مجلة الإصلاح السلفية حول الشيعة، وقام السلفيون بتوزيعه إضافة إلى بيان للشيخ ربيع المدخلي يحذر من خطر التشيع، في ولاية عين تموشنت وهو النشاط المضاد الموجه بشكل مباشر لمحاربة التشيع في هذه المدينة التي يتواجد بها أحد أهم رموزهم الدينية[2].

لكن هذا النشاط على أهميته لا يرتقي إلى مستوى الاستراتيجية لمواجهة هذا الخطر، فأولا نجد هذه النشاطات لا تستهدف المتشيعين بشكل مباشر كما لو أنه يسلم ويقرّ بتشيعهم، بل وأكثر من ذلك فإننا نجد المتشيع ناشط في نشر معتقداته وضلالاته رغم هشاشتها وتناقضاتها، وفي المقابل يقف السلفي موقف المتوجس والمتخوف من مواجهته بسبب الخشية من مجالسة أهل البدع، كما أن غياب التوجيه الشرعي الواضح في

(١) بوزيدي يحيى، إخوان الجزائر واعترافات القرضاوي، مجلة الراصد، العدد ١٢٣، بتاريخ ٢٠١٣/٠٦/٢١، على الرابط:
http://alrased.org/main/articles.aspx?selected_article_no=٦٢٩٦

(٢) التيار السلفي يشن حربا على معتنقي المذهب الشيعي بالجزائر، جريدة الشروق، ٢٠١١/١٢/٠٩، على الرابط:
http://www.echoroukonline.com/ara/index.php?news=٨٨٤٦٠

كيفية التعامل مع المتشيعين يربك حركة السلفيين.

وهنا أضرب مثلا واقعيا عن غياب الاستراتيجية المتكاملة والشاملة لهذا الأمر حيث أنني طرحت على ثلاثة مشايخ سلفيين إشكالية خلاصتها: هل يجوز لشخص قبول هدية من أضحية جاره المتشيع؟

فحصلت منهم على ثلاث إجابات، أحدهم قال: يجوز، والثاني قال: لا يقبلها منه، وسكت، والثالث قال: لا يقبلها منه وأضاف بأن يفعل ذلك بأسلوب حسن ويوضح له بأنه لا يقبلها منه لأنه متشيع مع شكره على ذلك لدعوته لعله يرجع عن تشيعه، قياسا على الجار الذي يكون عمله حراما ويهدي جاره طعاما فيرفض هديته ويوضح له أن عمله حرام. وهذه الإجابة الأخيرة أجد فيها نوعا من الاحتواء الإيجابي للمتشيعين وهذا ما يحتاجه الكثير من السلفيين.

ومن ناحية أخرى فإن العمل الذي استهدف مواجهة الظاهرة بشكل مباشر يتمثل في إصدار عدد خاص من مجلة الإصلاح حول الشيعة وتوزيعه في مدينة عين تموشنت فقط، وهذه الحملة إضافة إلى أنها تكاد تكون الوحيدة ومعزولة فإنها جاءت جد متأخرة بعد قرابة الثلاثة عقود من الانتشار المتصاعد للظاهرة، وما يلفت الانتباه أيضا أنها جاءت بعد قرابة الخمسة أشهر من بيان للشيخ ربيع المدخلي حذر فيه من خطر التشيع في الجزائر والتخاذل في محاربته[1]، في حين يفترض أن يكون عمل السلفيين أكبر وأقدم كونهم الأقرب والأعرف بالمجتمع ولا ينتظرون حتى تصدر تحذيرات من الشيخ ربيع، هذا مع العلم أن التنبيهات والتحذيرات كانت أقدم من هذا بكثير.

كما أن الشيخ فركوس أفتى بعدم جواز مناظرة الشيعة في الفضائيات ووجوب محاربتهم في غير ذلك، برغم النتائج الكبيرة الإيجابية لهذه المناظرات والتي اضطرت الشيعة للإفتاء بحرمة مشاهدة هذه المناظرات والقنوات!

الخلاصة

المخاوف التي تطرح حول ظاهرة التشيع ليس من كونها حالات فردية، وإنما من وجود الكثير من الأمارات والعلامات التي تعكس وجود تخطيط منظم لنشر التشيع، والخطورة ليست في الأمد القريب ولكن على المستوى البعيد. وما يساهم في عدم الاستشعار بها هو التباعد الجغرافي بين الجزائر وإيران من جهة وتشابه المواقف السياسية إلى حد كبير من التحولات الجارية في المنطقة بين النظامين السياسيين التي تغطي على طبيعة نشاط المتشيعين، لأن ما يحركه هو توافقه مع إيران أكثر منه مع الجزائر.

ولكن السابقة التاريخية خلال الأزمة الجزائرية في حقبة التسعينيات من القرن الماضي وما تم تداوله عن دور للحرس الثوري في تدريب عناصر إرهابية وتقلد متشيعين لمراكز قيادية في تلك الجماعات مؤشر على ما هو أسوأ من المتشيعين إذا ما استمروا في نشاطهم، خاصة في ظل ما يرصد من تعدد لأوجه نشاطهم. من هنا تأتي أهمية تنبيه كل الأطراف لتحمل مسؤولياتها والنظر للموضوع من زاوية أكثر شمولية، واستدراك الأخطاء وسد الثغرات والفراغات التي تسلل منها التشيع والعمل على تحصين المجتمع منه.

ولعل إثارة هذا الموضوع والنقاش الجاري حوله إعلاميا يشكل إرهاصات أولية لاستراتيجية مضادة للتشيع، بداية من مواقف وزارة الشؤون الدينية وإدراجه ضمن المخاطر المهددة للمرجعية الوطنية، وتنبه الكشافة الإسلامية للنشاط الشيعي التبشيري وسعيها لاتخاذ إجراءات وقائية منه، وتفطن الحركة الإسلامية لحقيقة الشيعة بفضل الثورة السورية، فضلا عن النشاط السلفي في محاربة الظاهرة على احتشامه.

ولكن هذه التطورات مجتمعة تحتاج لتجميعها وتوجيهها في سياق منظم أو استراتيجي يوازي استراتيجية نشر التشيع، وهذا الدور منوط بالمؤسسات الأكاديمية والعلمية التي على جميع الفاعلين الالتفات إليها والإصغاء لها بل ودعمها وهذا أقل الواجب من الجميع تجاه الدين والوطن.

---

(١) ربيع المدخلي: أيها الجزائريون سكوتكم عن التشيّع من أكبر المنكرات، جريدة الشروق، ٢٥/٠٥/٢٠١١ ، على الرابط: http://www.echoroukonline.com/ara/?news=٧٥٩٥١

حقائق خطيرة في الشأن العراقي
علاقة أمريكا وإيران بتنظيم القاعدة

سمير الصالحي(*) - خاص بالراصد

شهدت الأشهر الأخيرة تصعيداً خطيراً في الشأن العراقي؛ من تفجيرات في المناطق السنية والشيعية، وعودة التهجير للسنّة في بغداد ومحافظة ديالى، وظهور ميليشيات شيعية، وإجراء استعراضات عسكرية في الشوارع بشكل علني، وقيامها بإرسال تهديدات بالقتل لخصومها في وسائل الإعلام، ومن ثم معاودة ظهور تنظيم القاعدة بشكل قوي وملفت للنظر، وكان آخر ذلك هروب سجناء القاعدة من سجني أبو غريب والتاجي، بعد هجوم شنّته القاعدة، لهذا كان لابدّ من تحليل لهذه التطورات والبحث عن أسبابها.

في البداية إن من يظن أنّ التطورات في العراق تجري بشكل منفصل عما يجري في المنطقة فهو مخطئ وواهم؛ لأنّ الأحداث تجري على خط زلزال واحد، فقد اقترب العدد اليومي للقتلى في العراق من عدد القتلى السوريين على يد النظام الأسدي!!

في العراق فإن زمام الأمور على الأرض بيد إيران؛ لأنها استلمت الأمور من أمريكا بعد شبه اتفاق مسبق بينهما وفق صفقة معينة، لكننا لا نذهب إلى النظرية القائلة أنّ ثمة مؤامرة كاملة بين الطرفين؛ لأننا يجب أن نفهم طبيعة هذه الدول، ففي داخل هذه الدول كتل وأجنحة متصارعة متضاربة الآراء والأفكار بشكل حقيقي وليس تنسيقيا، وتعمل كل واحدة منها وفق نظرية معينة، تخالف الأخرى، وليس هذا من قبيل تبادل الأدوار (وإن كان هذا موجودا) ولكنه ليس ما يحدث دائما، فهناك تحركات لكل جناح في هاتين الدولتين (إيران، أمريكا) داخل العراق مما يجعل الأمور والقرارات والتصريحات تبدو متناقضة ومتضاربة وهي كذلك حقيقة.

سياسات إيران تجاه العراق:

بسبب أن العراق يحوي مراقد وقبور ستة من أئمة الشيعة المعصومين، وهو مركز التشيع القديم، كما أنه يشكل لإيران عمقا جغرافيا إستراتيجيا منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة، تهدف سياسة إيران في العراق إلى تحقيق عدة أمور:

- السيطرة المذهبية على شيعة العراق ومرجعياتهم، وهذا هدف قديم منذ زمن شاه إيران الذي دعم مرجعية محسن الحكيم، وصرح بهذا الحكيم يومها أن قال: «إنّ نظام الشاه هو المدافع الوحيد عن شيعة العالم وهو حصنهم الحصين والوحيد»، واستمرت فكرة توظيف المذهب لصالح إيران بعد تسلم الخميني زمام الأمور سنة ١٩٧٩م وليومنا هذا.
- كما أن هناك حلما إيرانيا بحكم المنطقة، والسيطرة على موارد العراق وإيران النفطية تسهل ذلك، إضافة إلى أن حجم الشيعة في العراق وإيران كبير.
- جعل العراق بلداً رديفاً للنظام الإيراني واحتياطيا لها في الناحية الاقتصادية، ووسيطا سياسيا بالمفاوضات أحيانا مع الدول الأخرى، وغطاء للتحركات الإيرانية.

ومن أجل تحقيق ذلك تسعى إيران لتغيير ديمغرافية العراق بتحويل سكانه إلى غالبية شيعية بإشعال معارك تطهير طائفي في كل حين في العراق، ويساعدها على ذلك الوجود الشيعي الكبير بالعراق ووجود عدد من الأحزاب الدينية والمراجع، وتعمل إيران على تخويفهم دائما من عودة الخطر السني إذا لم يستغلوا الفرصة التي لم تسنح لهم منذ ١٤ قرنا!

هذا المخطط الإيراني الديني والقومي يحاول بعضُ الشيعة من أصحاب التوجهات القومية أو العروبية أو العشائرية معارضته، ولربما توجد توجهات دينية شيعية عراقية تحاول التخلص من هيمنة إيران على العراق؛ لأن سلوك إيران القومي الشوفيني يستفز حتى الشيعة العرب، وما سيحدث لشيعة العراق هو مصير شيعة الأحواز.

(*) كاتب عراقي.

إيران والغرب:

هذا ما تخطط له إيران في العراق، أما عن علاقتها بالدول الغربية (أمريكا وبريطانيا وبقية الدول) فإن إيران تعرف أنها أضعف من أن تقف بوجههم، لكنها تطمح منذ زمن الشاه بأن تكون القوة الإقليمية (شرطي الخليج) بالتنسيق مع الدول الكبرى، ولم يتوقف هذا الطموح مع سقوط نظام الشاه وانتصار الخميني، ولكن اللاعب الإيراني تغير اليوم وتوسعت أطماعه، حتى عدّ بعض المحللين الأمريكان أن أهم حدث في بداية القرن الحادي والعشرين هو التحالف الأمريكي الإيراني أو تحالف المحافظين الجدد والأصوليين، وأن إيران تتلاعب بذكاء مع الدول الكبرى، والدول الكبرى تستغلها لتحقيق مصالحها، ومن أمثلة ذلك:

إدراك إيران أن الغرب له موقف عدائي من الإسلام معروف وقديم، وهذا الموقف هو ضد الإسلام السُني المنتشر في الدول العربية والإسلامية وليس إسلام الأقليات (الشيعة، الدروز، العلوية) فإنها لم تشكل في يوم ما عدوا حقيقيا للغرب، بل طالما استغلها الغرب لإسقاط الدولة العثمانية، واليوم يستغلها لإضعاف الأمة الإسلامية والعربية وربما أكثر من ذلك.

وعقب ضرب أبراج نيويورك عام ٢٠٠١ وتبني القاعدة للعملية، قامت أمريكا باحتلال أفغانستان والعراق، وفي العراق قررت أمريكيا (المحافظون الجدد) أن تُمَكّن الشيعة من الحكم (خاصة التيار الديني) باستثناء المنطقة الكردية، وبرزت المقاومة السنية القوية للاحتلال (٢٠٠٣ - ٢٠٠٦) حيث بلغت العمليات الشهرية أكثر من ألف عملية، وبلغت عمليات الجيش الإسلامي وحدها بين سنتي (٢٠٠٦- ٢٠٠٧) ١٤ ألف عملية.

كل ذلك جعل الاحتلال يحاصر المقاومة العراقية إعلامياً في تنظيم التوحيد والجهاد وتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين لتشويه المقاومة وأنها إرهابية وغير عراقية! كما تم السماح للميلشيات الشيعية بالتحرك علنا تحت رعاية القوات الأمريكية كرد فعل على التحركات السنية في المقاومة!

ولا يفوتنا أن نذكّر بالعلاقة الخفية بين إسرائيل وإيران، ولنترك عنتريات الإسرائيليين وتهديداتهم بضرب المفاعل النووي الإيراني، فإسرائيل دمّرت المفاعل النووي العراقي وهو قيد البناء، بينما يتفاوض الغرب مع إيران حول مفاعلها النووي منذ أكثر من عشر سنوات بعد أن اكتمل. ودعونا كذلك من النغمة العدائية التي تظهر أحياناً في وسائل الإعلام الغربية ضد إيران، فالمهم ليس ما نسمعه، بل ما نراه يتحقق على أرض الواقع.

وحين ظهر في السنين الأخيرة مصطلح الإرهاب الإسلامي، وهو مصطلح واسع اقتصر على تنظيم القاعدة ومجموعات سنية، ولم يشمل أي تنظيم شيعي مثل حزب الله والميليشيات الشيعية، بل سهل الحاكم الأمريكي للعراق آنذاك بول بريمر دخول الميليشيات في الجيش والشرطة. واستغل الغرب وإيران وغيرهما هذا المصطلح لصالحهم بشكل ذكي، ولم نفلح نحن أهل السنة من التخلص من تهمة الإرهاب؛ ولذا أصبح الآن ذريعة لتحطيم دولنا الإسلامية السُنية.

سياسة أمريكا تجاه الجماعات المسلحة والقاعدة:

تعتمد فلسفة السياسة الأمريكية على وجود طرف غير خاضع للسيطرة قادر على الإيذاء، يمكن نصبه عدواً قومياً لأمريكا، ويجري استخدام هذا العدو في أغراض متعددةٍ، منها:

- إعادة ترتيب الأوراق في بعض الدول المستهدَفة مثل (العراق).
- ومنها تجييش الرأي العام (المحلي إذ أنّ هناك أجنحة أمريكية ضد الإرهاب).
- ومنها أيضاً تمرير ميزانيات عسكرية واستخباراتية هائلة.
- وكذلك تنفيذ أهداف سياسية استراتيجية تتعلق بالأجندة الأمريكية في العالم.

وفي العراق قدَّمت القاعدة - بسبب استراتيجيتها العنيفة- بعضا من المسوغات والذرائع لبقاء القوات الأمريكية، كما أنها أتاحت للاحتلال أن يعيد ترتيب البيت السُّني من الداخل، بشكل يتلاءم معها وليس ضدها أو بتعبير أدق: (أن يفككه ويعيد تركيبه)؛ فدخلت قِطاعاتٌ عريضة من العرب السُّنة في دائرة غير متناهية من العنف؛ فالقاعدة تعاونت مع العشائر أولاً، ثم

اختلفت معها فجرى تكوين مجالس الصحوة التي دخلت في صراع دموي مع القاعدة، ثم نشأت مشكلة أتباع الصحوات وإدماجهم في الجيش والشرطة، ثم حانت مرحلة انتقام القاعدة من قيادات الصحوة وعناصرها الذين تُركوا بدون حماية، وهكذا دوامة لا تنقطع من الدماء المهدرة بدون فائدة. واستطاعت القاعدة اليوم تصفية ما يقارب من ٩٠٪ من قيادات الصحوات!

قد يستغرب البعض من هذه الوقائع ولا يصدقها، ولكن الذي يعرف أن الثقافة السياسية الأمريكية مبنيَّة في جانب كبير منها على مفهوم: أن «**استمرارية الصراعات قد يكون أكثر نفعاً من إنهائها**»؛ يستوعب هذا الوضع المتناقض، والذي يشهد له عدم إنهاء الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، بل الاستمرار في إدارته وتوظيفه.

فأمريكا عندما دخلت في صراع مع القاعدة لم تستهدف إنهاء الصراع، بل إدارته؛ أي أن هناك عدة مستويات مختلفة من إدارة الصراع باستخدام القاعدة؛ لذلك يراد دائما وجود للقاعدة في العراق وعدم تحطيمها نهائياً، وفي حالة ضعفه بشكل حقيقي تقوم الاستخبارات الدولية بعمل البديل فتقوم هي مكانه؛ من تفخيخ وقتل على الهوية للسنة وللشيعة لدوام بقاء الصراع!

إيران واختراق القاعدة والجماعات المسلحة:

حتى تنفذ إيران سياستها في العراق فإنها تحتاج إلى أطراف يمكنها أن تؤثِّرَ في الأوضاع وتستهدفَ القوى العراقية بما يخدم المخطط الإيراني، دون أن يكون هناك ما يربط إيران بهذه الأطراف تاريخياً أو دينياً أو سياسياً، بل يمكنها أن تنفي بقوة أي ارتباط بها، وهذا ما تجسد في حالة تنظيم القاعدة بسبب التنافر العقدي.

ولا أقصد بالاختراق بالضرورة صرف القاعدة المُختَرَقة عن تنفيذ أهدافها الخاصة وفْقَ رؤيتها بشكل كلي (نظرية المؤامرة)، ولكنه قد يتضمّن تحقيق قَدْرٍ من التوجيه في ما يتعلق بـ (التوقيت أو اختيار الأهداف)، إن أدوات الاختراق معروفة وتشمل: التمويل، والإيواء، وسائر أنواع الدعم اللوجستي؛ وليس بالضرورة أن يكون الاختراق شاملاً لكل المستويات القيادية، أو أن يصل إلى مستوى إصدار تكليفات مباشرة؛ لذلك تبقى قوى من القاعدة غير مسيطر عليها ولا تعرف ما يجري وراء الكواليس.

ومعلوم مدى قدرة الإستراتيجية الإيرانية على توظيف واستخدام أطراف خارجية يجري حرقها لاحقاً؛ بمعنى أنه يمكن التضحية بها في مفاوضات لاحقة، أو رفع الدعم عنهم، أو كشفها، كورقة حسن نية للتفاوض، وهذا ما تفعله إيران مع القاعدة، وقد نفذت طهران هذه السياسة على المستوى الشيعي مع التيار الصدري وجيشه (جيش المهدي) الذي اخترقته طولاً وعرضاً وضحَّت به على مذبح المجلس الأعلى تارة، ثم على مذبح نوري المالكي تارة أخرى، ثم قدَّمت لزعيم التيار بكلِّ بساطة الملجأ والمأوى وطلب العلم! هذا على مستوى المحلي، أما على المستوى العربي ففي ما يخص العلاقة مع المملكة العربية السعودية اليوم، لم تعد طهران تدعو إلى إسقاط قيادة آل سعود لكن تبقى إيران أحد خصوم الرياض، وفي حال تدهور هذه العلاقة، قد تميل إيران إلى التعامل مع القاعدة المعادين للنظام وقد تستغل روابطها مع هؤلاء للرد على أي ضربة تستهدف منشآتها النووية.

طبيعة علاقة القاعدة مع إيران :

لا يمكن لأحد أن يدّعي أن أيديولوجية القاعدة تتماهى مع إيران، فبين الاثنين تكفير وعداوة واضحة، لكن من وجهة نظر القاعدة، يبدو التعاون مع إيران منطقياً؛ فهي تفتقر إلى الموارد اللازمة التي تملكها دولة قوية مثل إيران، وإن التمكن من المرور عبر إيران أمر مفيد جداً للقتال في العراق وأفغانستان وباكستان، وتستفيد القاعدة من حصولها على ملجأ آمن هناك كونها تحتاج إلى استراحة من ملاحقة الأميركيين وحلفائهم الذين يريدون اعتقال عناصرها وقتلهم، خاصة بعد أن نجحت العمليات الجوية الأميركية باستهداف كبار قادة القاعدة، مما سيكسب إيران أهمية غير مسبوقة في نظر القاعدة كمكان يضمن على الأقل بقاء قادتها على قيد الحياة!

وبما أن القاعدة منظومة عالمية وليست محلية فإن سلوكها في أي منطقة ينطلق من رؤيتها الذاتية لواقع العالم الإسلامي، وكثرة التضييق عليها يجعلها تبحث عن مكان آمن وبيئة حاضنة وتمويل، وهي تحاول أن توفر بيئة مناسبة لها بإحداث نوع من الفوضى توظفه

لـصالحها وفـق نظريـة التـوحش وإدارتـه[1]، كمـا أن القاعـدة عملـت علـى اسـتفزاز الـشيعة في العـراق كـي يصطدموا مع السنة بحرب أهلية؛ مما يحرك السنة ضد الشيعة ويوجد مناخا من الفوضى تسهل الحركة فيه، وهو ما تقاطع مع المصلحة الإيرانية بنشوب صراع سني شيعي يلجأ شيعة العراق فيه إلى إيران! ولذلك كان من أهم أسباب الخلاف بين الظواهري والزرقاوي استهداف الشيعة في العراق.

إستراتيجية القاعدة تقوم على تحييد إيران كدولة في الصراع، وربما تحييد روسيا أيضاً، من أجل الاستفادة من أرض إيران كمعبر وموطن وملجأ، وأحيانا الحاجة إلى المال الإيراني الوفير، للتحرك في العراق وسوريا وفي أفريقيا، بما يحقق مصالح متناقضة للطرفين فكلاهما يفهم ما يريده الطرف الآخر تماماً.

بالطبع توجد جيوب أو قطاعات من القاعدة لا تقبل بهذا ولكن غالباً هي من المستويات التي لا تدرك هذه الأبعاد أصلاً للعلاقة بين الطرفين!

تاريخ العلاقات الإيرانية مع القاعدة:

برزت بواكير العلاقة الظاهرة بين إيران والقاعدة بعد أن لجأت قيادات من القاعدة من أفغانستان إلى إيران عام ٢٠٠١، إذ قررت إيران يومها - بعد تردد - إقامة علاقات إستراتيجية معها بواسطة قيادات مصرية، وإن كانت هناك محاولات سابقة منذ سنة ١٩٩١ بوساطة سودانية من حسن الترابي بين القاعدة وإيران ولكنها كانت على مستوى بسيط، لكن الأمور لم تتبلور إلا بعد فرار القيادات لداخل إيران. ولم تكن كل التوجهات الإيرانية راغبة بإقامة هذه العلاقة.

رأت القيادتان الإيرانية/ الشيعية العراقية، ضرورة أن تبقى القاعدة في المناطق السنية، حتى تكون مناطق رخوة أمنيا لكنها في نفس الوقت مُسيطر عليها، ومثال ذلك محافظة نينوى، إذ لن يسمح لأي قوى سنية أخرى أن تبرز؛ لأنها ستحلّ بسهولة أسطورة سيطرة القاعدة والإرهاب السني (القاعدة). وبهذا ينتهي جزء من المؤامرة؛ لذلك فإن القوى الأمنية لحكومة المالكي تسمح بنفاذ القاعدة وتغلغلها بحدود، ليبقى الإرهاب سُنياً، والمادة أربعة إرهاب، جاهزة في وجه السنة، وعندها النماذج جاهزة لتبرير أي فعل، وتضمن بذلك ولاء القيادات العسكرية السنية العميلة للحكومة وأن تكون ملكية أكثر من المالكي نفسه؛ وإلا فلماذا استطاعت مجموعة من العشائر والصحوات المسلحة تسليحا خفيفا من طرد القاعدة ومطاردتها وتعجز الحكومة العراقية بكل إمكانياتها المادية والعسكرية عن ذلك؟!

الجواب واضح: هو في تفحص حالة تضخم الجيش العراقي ليصل تعداده والقوى الأمنية إلى أكثر من مليون عراقي شيعي غالبهم من أهالي الجنوب، وما يحتاجه هذا العدد الضخم من عقود أمنية ودورات، ودون جدوى؛ لأنه يراد له أن يكون بدون جدوى.

وهذا التضخم يغطي على نسبة البطالة المرتفعة، ويغطي على حالة الفساد المالي في الجيش، هل تذكرون صفقة السلاح الروسي البالغة أربعة مليارات دولار! ولا حاجة للتدليل على حجم الفساد في العراق!

ولكي يغطوا على حجم الجيش الخرافي (جيش مصر ٨٠٠ ألف من أصل ٩٠ مليونا!)، لا بد من سيناريو وجود قوى سنية إرهابية (القاعدة) حتى يبقى السنة دائما مدانين محليا وإقليميا؛ لذلك شرع حسن نصرالله بتبرير وجوده في سوريا بذرائع القاعدة، ويتشرعن وجود الميليشيات الشيعية التي تمارس رد الفعل والتهجير لتمرير خطة إيران، بحجة الدفاع عن المذهب؛ لذا فإن المطلوب هو ضربات طائفية للحسينيات والمساجد الشيعية والأسواق، ثم ضربات لمناطق سنية؛ حتى تتأجج الطائفة الشيعية؛ أي خلق صراع لكن الرابح فيه القوى الشيعية لأنهم من يمتلك القوة العسكرية والسياسية.

وفي ذات الوقت تتمسك القوى السنية أكثر بالقاعدة لأنها من تثأر لها ضد الشيعة فإن المقاومة حوربت بشكل أضعف وجودها على الأرض وضعفت إمكانياتها بعد تجفيف المنابع ؛ ولأن هذه الخطة يجب أن تمارسها بالخفاء قوى أمنية معينة لابد أن يثبت المالكي وأتباعه أن خطراً مذهبيا إرهابيا مدفوعا من السعودية وتركيا يواجههم، وأن البعثيين والقاعدة يريدون العودة وقتل الشيعة، لذلك تلقي أجهزة الأمن بين الفينة والأخرى

---

(١) وهذا يتماهى مع سياسة أمريكا بالفوضى الخلاقة.

القبض على قيادات وأفراد من القاعدة، وتسجل أسماءهم في قوائم أمنية الكترونية (هذا النظام أوجدته أمريكا) وأبقته بعد خروجها للحكومة العراقية. وهذه الخطة لا يعلم بها إلا مجموعة خاصة من الحكومة العراقية؛ لذا فإن القبض على قيادات من القاعدة أمر مستمر، يقابلها إخراج وتهريب من السجن وهو أمر مستمر عند الحاجة.

ففي كل فترة تقوم الجهات الأمنية الخاصة بترتيب هروب عناصر القاعدة من السجون، وتقوم جهات بمسح أسمائهم مؤقتا من الكومبيوترات لتسهيل تحركهم لتنفيذ عمليات، أو تسهيل تهريبهم إلى سوريا.

كما وُظف الطرف المخترَق بالقاعدة في العراق لتصفية الطاقات العلمية والنخب، وقيادات الجيش السابق والمقاومة الأخرى؛ ويكفي أن نذكر أن أشهر شخصية مقاومة (قناص بغداد السامرائي رحمه الله) ذبحته القاعدة في السجون، في سجون الأمريكان وغيره كثير، ولم يعرف الأمريكان أنه قناص بغداد إلا بعد مقتله بأشهر.

وقد نجحت إيران في اختراق المقاومة العراقية والتشويش عليها عن طريق القاعدة، وتم ذلك باستخدام المخابرات السورية؛ لأن أغلب المقاومة العراقية والقاعدة لم يكن لها مأوى له إلا سوريا[1] وكان ثمة تَواصُل مقنَّن يعقبه توجيه مبرمَج ثم تضحية مؤكَّدة؛ ومن ثم تصفية قيادات القاعدة بناءً على دعمٍ استخباراتيٍّ إيراني، وكل من يكتشف ذلك يُصفى، وهذا ما حدث لوزير إعلام (دولة العراق الإسلامية) محارب الجبوري، فعندما كشف بنفسه باجتماع في حلب أنه اجتمع مع قادة إيرانيين، وكشف هذا لأتباعه داخل العراق مستنكرا، عندها قررت القيادة كشف موقعه للأمريكان وجرى تصفيته.

لا يشمل هذا الكلام كل القاعدة فهناك جهات من القاعدة والتكفيريين ليسوا ضمن هذا النظام يقدرهم البعض بـ ٣٠- ٢٠ ٪ من عناصر القاعدة، وهؤلاء دائما يعطون انطباعا للناس بأن القاعدة خارج السيطرة الإيرانية؛ لذلك تحرص الحكومة وأجهزتها الأمنية دائما على القبض عليهم وإعدامهم أو مفاوضتهم إلى أن يكونوا ضمن المخطط.

إن خطورة الاختراق الإيراني للقاعدة يمكن إدراكها مِنْ توقُّع ما سيحدث إذا انسحبت قوات الاحتلال من العراق؛ وهذا ما حدث حيث أغلب جماعات المقاومة سوف تلقي سلاحها وتتصرف إلى شؤونها، لكن القاعدة لن تفعل ذلك، وسيبقى سلاحها مرفوعاً لخوض معارك وهمية جديدة ضد العراقيين (سنة وشيعة) وبتوقيع إيراني.

المشكلة في فهم هذا الأمر أن ليس كل القاعدة على هذه الشاكلة، وهذا هو الحق؛ لذا فإن كثيرا من المحللين العراقيين والعالميين يصنف القاعدة إلى ثلاثة أصناف: وطنية، أمريكية، إيرانية.

وهذا الأمر يجب أن يفهمه عقلاء الشيعة أن إيران وربما الغرب أحيانا هما من يريد تأجيج الحرب الأهلية بين السنة والشيعة.

الخلاصة[2]: إيران تحاول باختراقها القاعدة تحويلها إلى أداة غير مباشرة لتنفيذ أهدافها، بينما أمريكا تعمل على الاستفادة من وجود القاعدة لتمرير أغراضها!! وربما باختراقها أحيانا.

وعندما تختلف إيران مع أمريكا تستخدم القاعدة (القسم المخترق)، وعندما يتحرك السنة تكون القاعدة جاهزة (القسم المخترق)، وعندما ترتبك الأمور في سوريا، فالقاعدة (جبهة النصرة) جاهزة لحمل تهمة الإرهاب، وصلة المخابرات السورية بالقاعدة كُشفت للجميع؛ بل كان مركز بث مواقع القاعدة الإلكترونية يتم من مؤسسة الفاروق في دمشق؛ ومع ذلك لا تهتم أمريكا ولا الغرب بعلاقة إيران والقاعدة إلا بالقدر الذي تستخدمه كورقة لصالحها، وفي سنة ٢٠٠٩ حصلت المخابرات المصرية على وثائق حول علاقات إستراتيجية بين القاعدة وإيران، لكن منعتها أمريكا من نشرها !

(١) وهذه تحتاج إلى دراسة لماذا منعت الدول العربية المقاومة من إيجاد مأوى لها.

(٢) اعتمدت على مقال أحمد فهمي: «إيران وأمريكا لماذا تحتاجان إلى القاعدة» مجلة البيان، في موضوع العلاقة مع إيران وأمريكا.

حادثة الهروب من سجن أبو غريب:

الأمور واضحة للجميع من أن أجهزة في استخبارات الدولة العراقية معنية بالتنسيق مع أجهزة فيلق القدس الإيراني، والمخابرات السورية وهي تعمل منذ سنة ونصف تقريبا على مخطط تهجير القاعدة وقياداتها من العراق إلى سوريا، وإبقاء جزء منهم في العراق.

ففي أواخر سنة ٢٠١١م دخلت القاعدة بطور جديد عندما أرادت إيران ونظام بشار الأسد توظيف تشكيل جبهة النصرة لإفشال الثورة السورية بشماعة الإرهاب والوهابية والقاعدة؛ والتي أسسها قيادات تم تدبير تهريبهم من السجون العراقية وتسهيل تهريبهم إلى سوريا؛ لأنّ الوضع في سوريا أصبح غير مسيطر عليه، وكالعادة صُنعت لهم بطولات كما صنعت للزرقاوي من قبل، وكما صنعت بطولات لكمال أتاتورك من قبل الغرب بعد سقوط الدولة العثمانية، وزمام الأمور بيد إيران بالتنسيق مع جهات من الحكومة العراقية.

فقبل أسبوع من هروب المساجين تم نقل ٥٠ معتقلاً من كبار أمراء القاعدة من سجن الناصرية إلى سجن أبو غريب استعداداً للهرب، وسيارات الشرطة التي كانت تحيط بالسجن يومياً انسحبت من أماكنها قبل ساعات من الحادث، وانقطعت الكهرباء مع بدء الهجوم في سجني أبو غريب والتاجي بشكل متزامن، وقد أعد الفارون قرابة خمسين حبلاً ضخماً للتسلق على الأسوار في غفلة من إدارة السجن، رغم أن هذا العمل يستغرق وقتاً طويلا!!

وفي نفس يوم الحادثة تم وضع كوم عالٍ من التراب بمحاذاة سور السجن لسهولة التسلق. وقدم جهاز المخابرات ثلاثة تقارير لإدارة السجن بكل تفاصيل العملية ومحاورها وآخر تقرير قُدم قبل الحادث بست ساعات، ومع ذلك لم يتم اتخاذ أي احتياطات!!

أسفرت العملية عن هروب ٧٣٦ سجينا، بقي منهم فاراً حتى الآن قرابة ٤٢٥ فردا، وقتل ٨ من أفراد الشرطة و٦ جرحى، ولم يصب أي حارس من الموجودين في أبراج السجن وعددها ٣٦، وإنما تركوها تحت نيران القناصين، وقتل عدد كبير وغير معروف من السجناء (من غير القاعدة) في التاجي ومعظمهم بإصابة في الرأس وأيديهم مقيدة وكأنه إعدام جماعي، بحيث تعذر على الأهالي التعرف على أبنائهم وهم ما يزالون في الطب العدلي[1].

تقول المعلومات إنه قد وصل أمراء القاعدة إلى سوريا للانضمام إلى جيش النصرة، استعداداً لمعركة قادمة ضد الجيش السوري الحر للتخفيف عن نظام بشار.

ولا شك أن المعاملة في السجن كانت في غاية الوحشية والطائفية ولا شك في أن الكثيرين كانوا مسجونين ظلماً وعدوانا بسبب قانون ٤ إرهاب الطائفي، لكن المشكلة الحقيقية هي في تلاعب إيران ونظام المالكي بأهل السنة والقاعدة بما يحقق مخططاتهم الخبيثة، ولا زال الموضوع يحتاج إلى دراسات أكثر وعيا عسى أن نوضحه في المستقبل إن شاء الله.

مخطط إسقاط الإسلاميين في مصر.. بداية ونهاية

معتز بالله محمد(*) – خاص بالراصد

لم تأت الإطاحة بالرئيس المصري المنتخب محمد مرسي، كخطوة منفردة انعكاسا فقط لتردي الأحوال المعيشية لملايين المصريين وتدهور الاقتصاد والخدمات الرئيسية، كما حاول قادة الانقلاب العسكري وأبواقهم الإعلامية تصوير الأمر، وإنما جاءت في إطار مخطط استخباراتي دولي إقليمي مصري، تبلورت أولى ملامحه منذ الإطاحة بالرئيس المخلوع حسني مبارك في أعقاب ثورة شعبية هادرة (٢٥ يناير ٢٠١١)، وقبل الدخول في تفاصيل المخطط يبقى من المهم استعراض موقف الأطراف الفاعلة فيه في أعقاب اندلاع الثورة المصرية قبل أكثر من عامين ونصف العام.

فأمريكا التي كانت ترى في مبارك الحليف الاستراتيجي الأمين الذي دأب على حفظ مصالحها في المنطقة وتحويل مصر - قلب الأمة العربية- إلى

(١) تقرير مجلس النواب، لجنة الأمن والدفاع ونشره النائب السابق ظافر العاني.

(*) كاتب مصري.

مجـرد تـابع أو مـدير أعمـال لراعـي البقـر الأمريكـي، وجدت نفسها مع اندلاع ثورة يناير في حالة من التخبط غـير المسبوق نتيجـة لفجائيـة الثـورة وعـدم توقـع تطـور الاحتجاجات الـشعبية علـى هـذا النحـو، فأصبحت إدارة أوباما بين شقي الرحى ما بين شعاراتها في حماية الحرية والديمقراطيـة وحقـوق الإنـسان مـن جهـة وبـين مـصالحها وأمـن إسـرائيل الـذي وقـف مبـارك علـى مـدى ٣٠ عامـا حارسا أمينا له، والتخوف من انتقال هذا الغضب الشعبي إلى مزيد من الدول الحليفة في المنطقة.

ومن ثم تذبذبت الردود الأمريكية على الثورة التي باتت مرهونة فقط بأيدي الشعب المصري الذي قرر تحديد مصيره. بكلمات أخرى قررت أمريكا أن تترك للمصريين الفعل على أن تتعامل مع رد الفعل بما يتسق مع مصالحها، فكان في النهاية أن باركت الثورة التي تعلم جيدا أنها ستأتي بالإسلاميين وتحديدا الإخوان المسلمين إلى سدة الحكم.

وفي المجمل اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية، موقفاً متحفظاً، متذرعـةً بـترك الأمـر للـشعب والجـيش المـصريين، بيـد أن اسـتمرار التظـاهرات وانتـشارها في القـاهرة ومختلـف المحافظـات المـصرية الكـبرى أقنـع الولايات المتحدة بنهاية نظام حسني مبارك، وهـو مـا دفـع الـرئيس بـاراك أوبامـا إلى أن يهنـئ الـشعب المـصري في أعقـاب تنحـي مبـارك في ١١ فبرايـر، علـى الـرغم مـن تـداعيات ذلـك علـى الـسياسة الخارجيـة للولايـات المتحدة وحلفائها التقليديين.

إسرائيل وثورة يناير

إسرائيل من جانبها – والتي اعتبرت أن عصر مبارك هـو العـصر الـذهبي لعلاقاتها بالدولـة المصرية- شـهدت حالـة مـن الـصدمة هـي الأخـرى والـتي حـاول قـادة دولـة الاحـتلال امتـصاصها فكـان أن وجـه رئـيس حكومتهـا بنيـامين نتنيـاهو في ٢٨ ينـاير أمـرا إلى جميـع المتحـدثين الرسميين باسـم الحكومـة، ومـن الـوزراء، بعـدم التحـدث إلى وسـائل الإعـلام بـشأن مـا يحـصل في مـصر، وكـان التعليل لـذلك أن إسـرائيل ليـست معنيـة بـأن تظهـر بـصورة من يقحم نفسه في الشأن المصري الداخلي.

وفي اليوم التالي بعثت حكومـة نتنيـاهو برقيـات سـرية عاجلة إلى الولايات المتحدة والدول الأوروبيـة أكـدت فيهـا أن للغـرب مـصلحة في الحفـاظ علـى الاسـتقرار في مـصر، وحـضت هـذه الـدول علـى الحـد مـن انتقاداتهـا العلنيـة الموجهـة إلى مبـارك، وأعربـت الحكومـة الإسـرائيلية عـن استيائها الـشديد من الخط العلـني الأمريكـي والأوروبي بشأن التطورات في مصر.

باختصار قررت إسرائيل الانتظار والتريث والتعامل مع الواقـع الجديـد بمـا يحقـق مـصالحها وإن كانـت تعـرف بحسب محلليها السياسيين ومفكريها أن سـقوط مبـارك وتولي نظام إسلامي مقاليد الأمور سيفرض عليها مزيدا من التحديات الخاصة باتفاقية كامب ديفيد وحركـات المقاومة الفلسطينية.

الثورة والخليج

كذلك شكل سقوط مبارك خطرا محدقا بعدد من دول الخليج العربي الملكية التي رأت أن سقوط النظام في مصر يهـدد اسـتقرارها لاسـيما وهـي لا تملك القـوة الـتي كـان يملكهـا مبـارك والـتي انهـارت تحـت وطـأة الغـضب الشعبي ومن ثم خشيت تلك الـدول علـى نفسها ممـا سمته دولـة مثل الإمـارات (تـصدير الثـورة المـصرية) وهـو الاتهـام الذي وجهته السلطات هناك فيما بعد لعدد من المصريين تم الزج بهم في السجون الإماراتية بإيعاز من ضاحي خلفان قائد شرطة دبي.

هـذه الـدول مجتمعـة مثلـت الـشق الـخارجي في مـؤامرة إسـقاط الإسـلاميين في مـصر، وهـو مـا سـنتطرق إليـه لاحقا.

العنصر الداخلي

شـكل نجـاح ثـورة ٢٥ ينـاير ضـربة قاصـمة لنظـام متـشعب ومتجـذر في مؤسـسات الدولـة المـصرية، بمـا في ذلـك المؤسـسات الأمنيـة بـدءا مـن أجهـزة الاسـتخبارات والشرطة مرورا بالجهاز الإداري بالدولة وصولا إلى رجـال الأعمـال، والإعـلام والقـضاء، الـذين اعتـبروا الإطاحـة بنظام مبارك تهديدا وجوديا لهم، وإيذانا باقتلاع شـجرة الفـساد المتـشعبة الـتي تـسلقوها فوصـلت بهـم إلى عنـان السماء.

التيار العلماني لم يكن بعيدا عن المشهد فقد انضم إلى تلك الجوقة فيما بعد، فشخصيات كالبرادعي وحمدين صباحي وغيرهم بما مثلوه من جبهات مضادة للفساد ولنظام مبارك، لعبوا دورا كبيرا في مخطط إسقاط الإسلاميين، ولم يجدوا غضاضة في التحالف مع رموز نظام مبارك، فتوحدوا جميعا لتحقيق هدف واحد.

قنوات الفتنة

سعت كل هذه القوى بشقيها الخارجي والداخلي عبر تحالف غير معلن سنتطرق إليه لاحقا، إلى منع وصول الإسلاميين للحكم بأي ثمن فكان أن فاز الإسلاميون بأول انتخابات حرة نزيهة لمجلس الشعب، ومن هنا بدأت خيوط المؤامرة تتضح بتشويه الإسلاميين وشيطنتهم وتأليب الشارع عليهم من خلال قنوات تم إنشاؤها بأموال رجال أعمال مبارك، تفبرك الأخبار وتختلق القصص ونرى ذلك جليا في تعاطي مثل هذه القنوات مع قضية مثل قيام النائب ممدوح إسماعيل بإطلاق الأذان داخل مجلس الشعب، ومع قضية الضباط الملتحين، وعشرات القضايا الأخرى.

ومن بين هذه القنوات: «سي بي سي» و«مودرن» وقنوات «النهار» التي يملكها جميعا محمد الأمين رجل الأعمال المقرب من مبارك والذي كان ينادي بالتوريث والذي ضخ على سبيل المثال في قناة واحدة هي «سي بي سي» أكثر من ٥٠ مليار جنيه، وهي غير معروفة المصدر، والغريب أن الصحافة تحاشت الحديث عنه بسبب اتساع دائرة المستفيدين من نجوم الصحافة المعروفين والذين يتصدرون المشهد حاليا.

أخطاء الإسلاميين

كان الحاكم الفعلي للبلاد خلال هذه الفترة هو المجلس العسكري بقيادة المشير محمد حسين طنطاوي، ومنذ بداية الفترة الانتقالية سقط الإسلاميون في الفخ المنصوب لهم وفقا للمخطط، فتخلوا عن الميادين التي أوصلتهم للسلطة وقالوا إن الشرعية للبرلمان ولم تعد في الميدان، فكان أن انشق الصف الثوري، واستعدى الإسلاميون الكثير من قطاعاته لاسيما بعد تبرير وقائع قتل وسحل المتظاهرين وتعرية إحدى الفتيات في أحداث محمد محمود وميدان التحرير.

كذلك كان من أهم الأخطاء الاستراتيجية والتكتيكية التي وقع فيها الإسلاميون نظرتهم الضيقة فيما يتعلق بتفكيك مراكز القوى في نظام مبارك، فقد غض التيار الإسلامي عموما والإخوان خصوصا الطرف عن تفكيك هذه المراكز التي كانت تعاضد وتناصر نظام مبارك، وذلك انطلاقا من مبدأ تحقيق المصالحة وفتح صفحة جديدة مع هذه القوى ظنا منهم أن هذه المراكز ستعمل لصالح البلاد، مبرهنين بذلك على سذاجة سياسية كبيرة، ومتغاضين عن أبجديات البناء المؤسسي فيما بعد الثورات والتي تقضي بالتخلص من مراكز القوى القديمة التي ستعمل لا محالة على إعادة النظام السابق لتحقيق منافعها ومصالحها الخاصة.

وفي مواجهة الهجمة العلمانية الشرسة على البرلمان الإسلامي، قابل الإسلاميون ذلك بالرهان على رصيدهم في الشارع والذي ظنوا أن حملات التشويه والتلفيق لن تؤثر عليه، وكان في استطاعتهم تدشين عدة قنوات بآليات عصرية لمواجهة قنوات فلول النظام، والحفاظ على ذلك الرصيد الذي بدأ يتآكل في الشارع، فظهرت قنوات إسلامية ضعيفة للغاية في مواجهة قنوات تمتهن الكذب لكن بمهنية عالية، وبقدرة رهيبة على قلب الحقائق وتزييف الواقع.

وبذلك فقد الإسلاميون في ظل حكم العسكر الكثير من مكتسباتهم القليلة، وأدت خطواتهم الساذجة والانفعالية إلى مضاعفة ورطتهم السياسية في المرحلة الانتقالية.

انتخابات الرئاسة

كل هذه المقدمات لعبت دورا كبيرا في تشويه صورة الإسلاميين والإخوان المسلمين تحديدا، وقد استغل الإعلام المضاد ترشيح الدكتور محمد مرسي- بعد قرار لجنة الانتخابات باستبعاد مرشح الجماعة خيرت الشاطر - لصالح المرشحين الآخرين لاسيما حمدين صباحي رئيس حزب التيار الشعبي، ومرشح الفلول أحمد شفيق، ووصف مرسي بالمرشح «الإستبن».

وجاءت الإعادة بين شفيق ومرسي لتؤكد حجم الهوة التي ضربت المجتمع المصري، الذي بات قطاع واسع منه يحنّ لعودة نظام مبارك، ويكفر بالثورة كفرا صريحا،

وما يعضد من تلك الفكرة هو الفارق الضئيل الذي حققه مرسي في انتخابات الرئاسة حيث فاز بنسبة ٥١٪ فقط، ومنذ ذلك الوقت بدأ مخطط الإطاحة بالإسلاميين يبدو أكثر وضوحا، وبدأت خيوط المؤامرة تتضح، ويصطف خلفها الكثيرون من المحسوبين على التيار العلماني الذي كان يدافع في الماضي عن الثورة.

وظهرت بصمات أجهزة المخابرات الأمريكية والخليجية والفلسطينية والمصرية التي أدارت جميعها مخططا محكما لإسقاط الرئيس المنتخب، وتبلور ذلك في إنشاء حركة «تمرد» التي كانت الأداة ذات الوجهة الشعبية المدفوعة مخابراتيا للإجهاز على المشروع الإسلامي، إضافة إلى عشرات الوثائق والتقارير، المصرية والفلسطينية والإسرائيلية والأمريكية التي تثبت تورط تلك الأجهزة في إنهاء حكم الإخوان المسلمين في مصر، وتسليم البلاد على طبق من ذهب للحكم العلماني، وسوف نوجز أهم ملامح المخطط خلال عام من حكم مرسي، لصعوبة تناوله بالتفصيل، فربما يحتاج إلى كتاب كامل للقيام بذلك.

الحرب بالأزمات

اعتمد مخطط إسقاط الرئيس على فكرة إفشاله والتي قامت هي الأخرى على ثلاثة عناصر هامة، **أولها كما أسلفنا الإعلام**، الذي يسميه الإسلاميون «سحرة فرعون» والذي لم ينفك ينفث سمومه في عقول المصريين فيشوه وعيهم ويزيف إرادتهم بمعلومات وتقارير مغلوطة.

أما العنصر الثاني فكان خلق الأزمات عبر الدولة العميقة التي كانت تسيطر فعليا على مفاصل مصر، حيث كان يتم سكب البنزين والسولار في مجاري الصرف الصحي والصحراء وهو ما تم كشفه في مدينة المحلة الكبرى بمحافظة الغربية وفي مدينة الغردقة، وذلك في الوقت الذي كانت فيه السيارات بمختلف أنواعها تقف بالطوابير أمام محطات الوقود. كذلك كان الحال بالنسبة للكهرباء التي كان يتم قطعها لساعات طويلة على مدى عام من حكم مرسي.

وكان للبلطجية الذين يقدر عددهم في مصر بما يزيد عن ٤٠٠ ألف دور بارز في تأليب المواطنين على رئيسهم المنتخب، فعاثوا فسادا في البلاد: قتلا، وسرقة، واغتصابا، واختطافا وما إلى ذلك من جرائم، وقفت الشرطة منها موقف المتفرج بحجة أنها لا تملك الإمكانيات اللازمة لوقف البلطجة وترويع المواطنين. وفي أحيان كثيرة كان من يذهب للتبليغ عن تعرضه لأي حادث أن يقولوا له في مراكز الشرطة «نحن في أجازة أربعة سنوات» في إشارة إلى قرار الضباط بعدم العمل خلال فترة ولاية مرسي والتي كان من المقرر أن تستمر لأربع سنوات.

العنصر الثالث كان عبارة عن تشجيع الإضرابات والاعتصامات الفئوية التي شلت مصر بشكل جزئي، حيث انتشرت في المؤسسات والقطاعات الحيوية كالسكك الحديدية والنقل العام، والمستشفيات والمدارس، بل وداخل منظومة الشرطة نفسها، وكان الهدف من ذلك إحباط محاولات الرئيس لتحقيق أي إنجازات مهمة قد تحسب له، وتزيد من شعبيته.

الغريب أنه بعد عزل مرسي وتشكيل حكومة جديدة برئاسة الببلاوي، تم الإبقاء على وزراء البترول والكهرباء والداخلية رغم أزمات الوقود والكهرباء وغياب الأمن، الأمر الذي يؤكد أن هؤلاء الوزراء وغيرهم هم من تسبب في خلق تلك الأزمات، ثم كان معهم مفاتيح حلها، فبعد ٣٠ يونيو ٢٠١٣ لم تشهد مصر أزمة في البنزين ولا السولار وتم توفيرهما بكثافة خلال ٢٤ ساعة في محطات الوقود، وكذلك الحال بالنسبة للكهرباء والأمن.

وثائق وتقارير

وسوف نتناول في عجالة مجموعة من الوثائق والتقارير الأجنبية التي تثبت تورط تل أبيب وواشنطن ومخابرات حركة فتح في رام الله ومخابرات عربية أخرى، في التخطيط لعملية إسقاط مرسي في ٣٠ يونيو.

في البداية لابد من الإشارة إلى وثائق أمريكية كشفت قيام إدارة أوباما بتمويل المعارضين لمرسي بغية إسقاطه، ووفقا للنسخة الإنجليزية لموقع الجزيرة، فإن سلسلة من الأدلة تؤكد ضخ الأموال الأمريكية للمجموعات المصرية التي كانت تضغط من أجل إزالة الرئيس.

والوثائق التي حصل عليها برنامج التحقيقات

الصحفية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي تظهر قنوات ضخ للأموال الأمريكية من خلال برنامج لوزارة الخارجية الأمريكية لتعزيز الديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط، يدعم بقوة النشطاء والسياسيين الذين ظهروا في أثناء الاضطرابات في مصر، بعد الإطاحة بحكم الرئيس المخلوع حسني مبارك الاستبدادي في انتفاضة شعبية في فبراير ٢٠١١.

الموقع أشار إلى أن البرنامج الأمريكي الذي يطلق عليه مسؤولون أمريكيون اسم مبادرة «مساعدة الديمقراطية»، هو جزء من جهد إدارة أوباما لمحاولة وقف تراجع العلمانيين الموالين لواشنطن، واستعادة نفوذهم في بلدان الربيع العربي التي شهدت صعودا من الإسلاميين، الذين يعارضون إلى حد كبير مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

هذه المبادرة التي تندرج تحتها عشرات المجموعات أرسلت الأموال لبعض المنظمات في مصر، حيث يتم تشغيل معظمها من قبل كبار أعضاء الأحزاب السياسية المناهضة لمرسي وهم من يوصفون بالعملاء المزدوجين كنشطاء المنظمات غير الحكومية «نشطاء «NGO».

ومن بين الشخصيات التي تلقت تمويلا من هذه الجهات الأمريكية المشبوهة جبهة الإنقاذ حيث قامت من خلال هذه الأموال بدعم حملات الاحتجاجات في الشوارع التي تحولت إلى العنف ضد الحكومة المنتخبة.

وكذلك المعارِضة إسراء عبد الفتاح وهي ناشطة سياسية وتتنقل عبر مصر لحشد الدعم لحزبها حزب الدستور، الذي يتزعمه محمد البرادعي، وقالت إنها قدمت الدعم الكامل لاستيلاء الجيش على السلطة، وحثت الغرب ألا يسمي ما حدث بـ «انقلاب».

ومن كلماتها أيضا: «و٣٠ يونيو هو اليوم الأخير من حكم مرسي» وهي الجملة التي أكدتها إسراء للصحافة قبل بضعة أسابيع من وقوع الانقلاب.

تقارير إسرائيلية

بعد أيام قليلة من الانقلاب خرج المحلل العسكري الإسرائيلي روني دانييل مؤكدا في حديث للقناة الثانية الإسرائيلية أن الجنرال عبد الفتاح السيسي أبلغ إسرائيل عن جهوده للإطاحة بالرئيس محمد مرسي قبل ثلاثة أيام من الانقلاب. وأكد دانييل أن الانقلاب العسكري في مصر مفيد لإسرائيل وأنه كان «مطلبا ملحا» لإسرائيل وأمنها.

وفي منتصف يوليو الماضي أذاع «راديو إسرائيل» خبرا أكد فيه قيام محمد البرادعي، نائب رئيس الجمهورية للشئون الدولية بزيارة قصيرة إلى إسرائيل بعد الانقلاب على الرئيس المعزول محمد مرسي، ومعه عدد من قيادات الجيش المصري، وأن الزيارة استمرت ٥ ساعات فقط.

وفي ٢٨ يوليو أكد مسئول قسم الأخبار في القناة العاشرة الإسرائيلية أنه بدون غطاء أمريكي لم يكن للانقلاب العسكري في مصر أن ينجح، وقال «نداف إيل»: «أمريكا في ذات الوقت سمحت للسيسي بإنهاء المهمة. تمامًا، بالمناسبة، كما منحت الإدارة الأمريكية لنظام مبارك مهلة زمنية، أكثر من أسبوع، لتصفية الثورة الفتية. لكن مبارك فشل وحينئذ أدارت له أمريكا ظهرها، فأمريكا تمضي مع المنتصرين. تريد أن ينتصر الجيش لكن صبرها ينفد».

في ٤ يوليو قال موقع «ديبكا» الإسرائيلي القريب من الموساد نقلا عن مصادر «استخبارية» أن ما أسماه الانقلاب العسكري في مصر ما كان ليتم لولا مساعدة قوية من دول الخليج، وعلى رأسها السعودية والإمارات العربية المتحدة.

وتابع أن «الرياض ودبي لم تضعا فقط خدمات المخابرات الخاصة بهما تحت تصرف السلطة العسكرية في مصر، لتمكينها من تنظيم الانقلاب ضد الإخوان المسلمين في القاهرة، إنما أيضًا منحوها التغطية المالية المطلوبة لذلك».

وفي ٦ يوليو كتب «عمير ربوبورت»، المحلل العسكري الإسرائيلي والباحث في معهد «بيجن – السادات» للأبحاث الاستراتيجية، إن الفريق أول عبد الفتاح السيسي ينظر إليه في إسرائيل باعتباره بطلا وعبقريا وزعيما يتمتع برباطة جأش منقطعة النظير، كونه أطاح بالرئيس دون إطلاق رصاصة واحدة، ودون تنفيذ انقلاب عسكري حقيقي، ونجح أيضًا في تكوين جبهة مصرية واسعة من خلفه.

أما حركة فتح فقد أرادت ضرب عصفورين بحجر، مساندة القوى العلمانية الساعية لإسقاط الرئيس في مصر، وفي نفس الوقت تشويه حركة حماس لدى الجماهير المصرية المحبة لها، فعملت وفقا لوثائق مسربة كشفت عنها حماس مؤخرا على التعامل عبر مخابراتها مع وسائل إعلام مصرية مقروءة ومرئية، بهدف التنسيق لنشر وإذاعة أخبار مضللة عن حماس، وتركزت هذه الأخبار حول تورط حماس في حادث مقتل جنود رفح العام الماضي، وتورطها أيضاً في القلاقل التي تشهدها سيناء، كما تطرقت الخطة الإعلامية للحديث عن مخطط بين حماس وجماعة الإخوان في مصر لتحقيق مصالح الحركة في سيناء، وغيرها من الأكاذيب التي سوقها الإعلام المصري بحق حركة حماس طوال الفترة الماضية، من أجل تشويه الحركة. ولا عجب بعد ذلك أن نجد الرئيس مرسي متهم بقضية لا يسوقها إلا الصهاينة وهي التخابر مع حركة حماس!

وفي الحقيقة كانت محاولة الإضرار بحماس، محاولة عامة لضرب التأييد الشعبي المصري لحركات المقاومة الفلسطينية، والإضرار بموقف الرئيس مرسي، ليستفيد من ذلك جهتان هما إسرائيل وحركة فتح، إضافة إلى المعارضة المصرية في الداخل، ما يؤكد حقيقة التحالف الدولي الإقليمي للإجهاز على المشروع الإسلامي في مهده.

خاتمة

إن نزول ملايين المصريين، مسيحيين وفلولا، وعلمانيين، ومغيبين، وجنودا بزي مدني، يوم ٣٠ يونيو لدعم انقلاب السيسي لم يكن سوى الفصل الأخير كما قلنا في المخطط الدولي الإقليمي للإطاحة برئيس تكالبت عليه كل قوى الأرض، وتهاون هو الآخر في اتخاذ قرارات قوية للإطاحة بمراكز القوى، وهي الخطوة التي كان من الأنسب اتخاذها بعد الإطاحة بوزير الدفاع السابق المشير طنطاوي في بدايات حكم مرسي، حيث كان من المفترض وقتها أن يتخلى مرسي عن منهج جماعته الإصلاحي ويتخذ قرارات ثورية يجتث بموجبها جذور الفساد لكن ذلك لم يحدث.

إن ملايين المصريين المنادين بعودة الشرعية في ميادين الاعتصام الآن يؤكدون أن المعركة لم تنته بعد، على عكس ما خطط السيسي الذي وجد نفسه في مأزق شديد، حيث خطط في البداية لجر الإسلاميين المؤيدين للرئيس إلى العنف ومن ثم يسهل إيجاد المبررات لسحقهم، ولكن هذا لم يحدث، وأبدى المعتصمون سلمية منقطعة النظير في مواجهة الرصاص بصدورهم العارية، ليبقى واضحا أن الأيام القادمة قد تشهد بداية انهيار المخطط الدولي للإجهاز على الإسلاميين في مصر، ووقتها فقط سوف ينكشف بالتفصيل ما خفي من هذا المخطط الشيطاني.

هل هو حقا عالم جدير بالأطفال؟

فاطمة عبد الرءوف(*)– خاص بالراصد

الطفل هو أجمل وأنقى ما في الكون لا يختلف على ذلك أحد وتهيئة الحياة لاستقباله وتنشئته ووضع الخطط لتربيته ونموه همٌّ إنساني لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات ولِم لا وهذا الطفل سيصبح باني حضارة الغد.

ونحن في ظلال حضارة الإسلام نجد أن للطفل حزمة كبيرة من الحقوق ولأجل تهيئته لامتلاك مستقبل آمن ومشرق جاءت الكثير من التشريعات والتوجيهات الإسلامية.

فالإسلام يوجه الشاب والشابة لحسن الاختيار في الزواج .. فالزواج وتكوين الأسرة في الإسلام نقطة محورية في حياة الفرد وليس مجرد إطفاء لشهوة أو غريزة ومن ثم كان الدين هو المعيار الأول والأساسي الذي يمكن على أساسه قيام الأسرة .. هذا الاختيار هو الضمانة الأولى لحقوق الطفل، وفي هذا السياق تتضح لنا جناية الفلسفة الغربية على الطفل عندما أصبحت الرذيلة أسلوب حياة وأصبح أبناء الزنا أكثر عددا من أبناء الزواج. وعندما أصبحت الرذيلة أسلوب حياة أصبح الهدف الأعلى هو المتعة ولم يعد سؤال: هل يصلح هذا الرجل كأب لطفلي أو هل تصلح هذه المرأة كأم لطفلي؟ سؤالا

(*) كاتبة مصرية.

له قيمة.

وأصبح وجود طفل مع أمه فقط أمرا طبيعيا بمعنى أن شكل الأسرة الفطري أصبح في طريقه للاندثار فهل هذا هو العالم الجدير بالطفل الذي تريد الأمم المتحدة تصديره للعالم؟!

حقوق فعالة

ليتهم يعرفون شريعة الإسلام بتكاملها وشموليتها وما كفلته من حقوق حقيقية وفعالة للجميع وخاصة الفئات الضعيفة كالأطفال، فمنذ اللحظة التي يقترب فيها الزوجان ثمة دعاء يقال (بسم الله اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا) إنها علاقة نظيفة تبدأ بالبسملة وتهدف لطفل نقي زكي بعيد عن الشيطان.

وهذا الطفل الجنين له حقوقه أيضا، فليس من حق أحد الاعتداء على حياته بل وتكفل له حاجاته من خلال النفقة على الأم الحامل حتى لو تم إنهاء رابطة الزوجية .. فهل ثمة قانون في الغرب ومؤتمراته الأممية يكفل حقوق المرأة الحامل رفقا بها ورفقا بجنين لا يزال يتشكل .. أقصى ما لديهم منحها عطلة عن العمل بضعة أشهر مدفوعة الأجر وهذا ما يجعل الجشعين يرفضون توظيفها وهو ما يجعلها خائفة من الحمل حتى تضمن لقمة عيشها ولا تفصل، أما شريكها فهو ليس مسئولا عن شيء. لقد أمضى وقتا لطيفا ومضى!!

وفي شريعتنا أن الطفل إذا ما ولد فإن أول ما تسمعه أذناه: الأذان والإقامة .. لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى حتى ينشأ على الفطرة وليس على الجشع والأنانية.

والطفل في شريعتنا رزق من الله يُستقبل بالاستبشار وإطعام الطعام من خلال العقيقة .. والحب والحنان والمداعبة والرحمة به هي توجيهات عملية مارسها النبي ﷺ وعلّمها لأمته.

فتقبيل الطفل رحمة وحمله تشبه بالنبي وإحضاره للمسجد سنة والكذب عليه محرم مهما كانت الأسباب، والسخرية والاستهزاء به أشد حرمة، وتعليمه القيم العليا واجب.

وعندما يبلغ الطفل سن التمييز نبدأ في تعليمه العبادات وربطه بمصدرها حتى ندعم فيه الضمير والفطرة ويأنس بالعبادات ويألفها، وهي أمور يغفل عنها واضعو الوثائق الأممية التي يصدرونها بناء عن تصور مادي للكون.

البلوغ والتكليف

مع وصول الطفل لمرحلة البلوغ الجنسي لا يعتبر من وجهة النظر الإسلامية طفلا وهو بالفعل ليس طفلا سواء من الناحية الجسدية أو من الناحية النفسية. يطلق علماء النفس على هذه المرحلة مرحلة المراهقة وهي مرحلة مختلفة تماما عن مرحلة الطفولة ومن أهم ملامحها أن النمو العقلي يصل لأقصى مداه في هذه المرحلة.

ربما تكون مشكلة هذه المرحلة العمرية متعلقة بالنمو الانفعالي فبينما يصل النمو الجسدي والعقلي لقمّته فإن النمو والنضج الانفعالي لا يكون كذلك بالنسبة للغالبية ربما بسبب التربية وربما بسرعة التغيرات وشدتها وعنفوانها ولكن هذه الانفعالات لا تجعلنا - كما تريد الوثائق والمنظمات الأممية - أن نجعل الشاب والشابة أطفالا.

إن النضج الانفعالي الكامل قد لا يتحقق إلا عندما يبلغ الإنسان العام الأربعين من عمره ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. فهل يظل الإنسان طفلا حتى عمر الأربعين.

إن أسامة بن زيد نموذج نشأ في ظلال حضارة الإسلام فإذا به يقود الجيش الإسلامي العظيم وهو لم يكمل بعد عامه العشرين، وأسامة ليس بدعا ولا شاذا، فعلى مدار التاريخ الإسلامي برز قادة عظام وعلماء رائعون لم يكملوا بعد عامهم العشرين .. ولكن حضارة الغرب أمرها عجيب فهي حضارة المترفين التي تهدر الإنسان وتضيعه .. تهدره طفلا بإفقاده معنى الأسرة وتضيعه بالغا باعتباره طفلا لا يتحمل مسئولية أفعاله.

الزواج المبكر

فإذا كان المراهق ليس طفلا وإنما هو إنسان مكلف فإن فلسفة الإسلام تحث على تزويجه مبكرا سواء كان

فتى أو فتاة[١]، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء: ٦]

والشاهد هنا قوله تعالى ﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ ففي ظلال الإسلام لا يوجد انفصام نكد كالذي نعيشه حاليا بين مشاعر الإنسان وأحاسيسه من ناحية، وبين واقعه من ناحية ثانية.

وإذا كان العلم الحديث قد أثبت أن أعلى معدل للهرمونات الجنسية يكون أثناء فترة البلوغ فإنه من الواجب أن نيسر للشاب والشابة الطريق الحلال الطيب، أما النفاق عينه فهو رفض الزواج المبكر باعتبار أن المراهق لم يزل طفلا وفي الوقت ذاته نعلّمه مفاهيم الصحة الإنجابية والثقافة الجنسية - ونحثه على التجربة الجنسية بدون حقوق وواجبات شرعية- حتى يصبح العالم جديرا به!!

العناوين الساحرة

النفاق الخالص أن تأتي عناوين الوثائق الأممية بعناوين رائعة تسحر العقل وتجعل القلب متعلقا بأحلام مثالية أما ما يحويه مضمون الوثيقة فهو السم الزعاف فعندما نطالع عنوان وثيقة (نحو عالم جدير بالأطفال) نتصور أو نتخيل أن تلك الوثيقة هي لدعم الأسرة (المحضن الطبيعي للطفل) وتقديم برامج تربوية نفسية للوالدين وسنتصور أن الوثيقة تدعو المجتمع لدعم الأسرة على كافة الأصعدة ولكننا سنجد أن الأمر جد مختلف.

فالوثيقة تتحدث عن المراهقين باعتبارهم أطفالا فتستخدم مصطلح «خدمات الصحة الجنسية والإنجابية» والتي تشمل كما هو معلوم خدمة الإجهاض وتأمين الحرية الجنسية للمراهقات.

وليت الأمر توقف على نشر الرذيلة بين الأطفال وهو أمر جلل بل تعدى الأمر ذلك بالإصرار على استخدام مصطلح الجندر الذي تم صكه بعناية في الأروقة الأممية والذي يعني إلغاء كافة الفروق بين الجنسين فتحدد الطفلة الأنثى مثلا متى وكيف تصبح ناشطة جنسيا فإذا كانت (متى) مفهومة فما الذي تعنيه (كيف)؟

أمر مفهوم في سياق الجندر فهي تختار هل تصبح أنثى أم ذكرا أم كائنا مزدوج الطبيعة الجنسية؟ وفي هذا السياق لا يمكن أن ننسى وثيقة بكين التي تعد أحد الأركان التي تقوم عليها الفلسفة الغربية لتدشين العالم الذي تريد والذي يبدأ من الطفولة (أخطر هذه البنود فى تلك الوثيقة ما ورد فى الفقرة ١١٥ من تقرير «خبراء الأمم المتحدة» الذى ينص على «حق الطفلة (أقل من ١٨ سنة) فى تحديد متى وكيف تصبح «ناشطة جنسيا sexually active» حسب تعبير التقرير، بخلاف التوصية في الفقرات ٢٧، ٨٢، ١٣٠ على توفير «معلومات الصحة الجنسية sexual health» للطفلة، وتوفير «احتياجات الصحة الإنجابية للمراهقين reproductive health» لتعليمهم ما أسماه التقرير فى الفقرة ١٢٤ «ممارسة الجنس الآمن to promote safe sex»، مما يصب في صالح تشجيع الممارسات الجنسية خارج الإطار الشرعي «الزواج»)[٢].

خلاصة القول إن عالمهم الذي يريدون غير جدير بالأطفال بل وغير جدير بالبشر. إنهم يقودون العالم لهلكة كبرى يريدون أن يفرضوها علينا وللأسف البعض يصدقهم ويروج لشعاراتهم الجذابة .. نترك ديننا وتشريعاته الرحيمة .. نترك الزواج المبكر ونعقّده ونزعم أن في تأخيره مصلحة للفرد والمجتمع ونترك الباب للصحة الإنجابية التي يزعمون حتى تفسد فتياننا وفتياتنا وتنتقل إلينا آفاتها.

(إن نظرة متأنية لمفهوم الصحة الإنجابية كما ورد في وثيقة بكين وخدمات الصحة الإنجابية (البند: ٩٤، ٩٥، ١٠٦، ٢٠٦، ٢٨١) وكما جاء في تقرير المؤتمر الدولي

---

(١) انظر: الزواج المبكر هو الحل، لكاتبة هذه السطور على شبكة الإنترنت.

(٢) الجنس الآمن في الدستور الجديد .. محمد جمال عرفة.

للسكان والتنمية (الفصل الثاني، الثالث، الرابع، السادس) على سبيل المثال يشير إلى أن (الصحة الإنجابية تعني قدرة الناس على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة، وقدرتهم على الإنجاب، وحريتهم في تقرير الإنجاب وموعده وتواتره) ويوضح بند ٩٥ في وثيقة بكين أن (الناس) هم (جميع الأفراد والرفقاء couples). أما بند ٧- ٨ من وثيقة القاهرة للسكان فيخص تلك الخدمات (الصبية والمراهقين بدعم وإرشاد من آبائهم، وبما يتماشى مع اتفاقية حقوق الطفل عن طريق المدارس ومنظمات الشباب..).

وبما أن الصحة الإنجابية وخدماتها متاحة (لجميع الأفراد والرفقاء) بما فيهم (الصبية والمراهقون) فقد لزم من وجهة نظر الثقافة الغربية إتاحة فرص واسعة للتثقيف الجنسي لهذه الفئة بالذات تفادياً للحمل والأمراض الجنسية، كما سمحت بالإجهاض، وتيسير وسائل منع الحمل، فيما يسمى بـ: (التثقيف الجنسي).

إن نظرة الغرب للجانب الجنسي في حياة الفرد لا تخرج عن كونها: حرية شخصية، فكل إنسان يفعل ما يحلو له، ومن واجب المجتمع حمايته وتثقيفه أيضاً كما ورد في بند ٩٥ من وثيقة بكين (الاهتمام بوجه خاص بتلبية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين كي يتمكنوا من معالجة الجانب الجنسي من حياتهم معالجة إيجابية ومسئولة).

وتحض مواثيق الأمم المتحدة مثل (بكين- القاهرة للسكان) ووثيقة عالم جدير بالأطفال على التثقيف الجنسي، خاصة للمراهقات، وتيسير حصولهن على وسائل منع الحمل وإباحة تقنين الإجهاض تحت مسمى: (الإجهاض الآمن)، وتؤكد على حق المرأة (في أن تتحكم وأن تبت بحرية ومسئولية في المسائل المتصلة بحياتها الجنسية بما في ذلك صحتها الجنسية والإنجابية، وذلك دون إكراه أو تمييز أو عنف- بكين: بند ٩٦).

وفي بند ١٠٨ من هذه الاتفاقية هناك مطلب بإدراج تعليم الجنس الآمن safe sex في المناهج التعليمية بالنسبة للأطفال (تصميم برامج محددة موجهة للمراهقين والرجال من جميع الأعمار مع مراعاة أدوار الوالدين المشار إليها في الفقرة ١٠٧هـ تهدف إلى توفير معلومات كاملة ودقيقة عن السلوك الجنسي والإنجابي المأمون والمسئول بما في ذلك الاستخدام الطوعي لوسائل الوقاية الذكرية المناسبة والفعالة بغية الوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز)[1].

من الأهمية البالغة أن ندرك هذه المخططات الجهنمية ونرفضها ولكن الأكثر أهمية أن ننشر ديننا وشريعتنا وننصرها في بلادنا قبل غيرها، فتحت ظلالها فقط ننعم بالأمن والسلام الداخلي والسعادة.

العبور الأمريكي عبر «الزاوية الصوفية»

مركز الأبحاث والدراسات بمجلة البيان-
عدد ٣١٣ رمضان ١٤٣٤هـ

مدخل:

«لا تخافوا سائر الإسلاميين، خافوا السلفيين».. بهذه العبارة الموجزة لخص الكاتب «روبن رايت» هواجس أمريكا حول «التطرف الإسلامي»، زاعماً ظهور ما يسميه (هلال سلفي جديد يتشعب من مشيخات الخليج الفارسي إلى بلاد الشام وشمال إفريقيا، هو أحد المنتجات الجانبية الأكثر تجاهلاً والمثيرة للقلق من الثورات العربية. وبدرجات متفاوتة يتحرك هؤلاء المتشدّدون الشعبويون في الفضاء السياسي الذي كان يحتله المسلحون الجهاديون، والذين هم أقل رواجاً الآن. وكلاهما أصوليون يفضلون نظاماً جديداً مشكلاً على غرار الإسلام الأول. وليس بالضرورة أن يكون السلفيون مقاتلين، فأغلبهم ينبذ العنف).

وهكذا قويت مع الزمن هذه الهواجس في نفوسهم، لدرجة وضع فيها الغرب جميع السلفيين في خانة التشدد، وانطلقوا يهرفون بمواجهتهم بما يصفونه بتيارات «الإسلام المعتدل».

ولقد كان من إحدى العلامات البارزة في مجال صناعة وصفة «الإسلام المعتدل»، توظيف الغرب مراكزه وبحوثه ودراساته المتخصصة في المجالات الإسلامية لبناء مصادر معلوماتية زاخرة لصنّاع القرار والسياسات،

---

(١) الثقافة الجنسية بين المواثيق الدولية والتصور الإسلامي، منى صبحي.

واضعاً بين أيديهم خلاصات رصد الصحوة الدينية وسط المسلمين، والتي يجرى دفعها في نهاية المطاف إلى «المطابخ الاستراتيجية» من أجل تحويل مخرجاتها النهائية لأغراض الإنذار المبكر حول الإسلام والجماعات الإسلامية والصحوة الإسلامية، هذا إلى جانب الاستفادة منها في بناء الاستراتيجيات والسياسات الميدانية لمواجهة التطور الحاصل في العمل الإسلامي على مستوى الدول والمجموعات الإسلامية.

وقديماً كانت تضطلع بهذا الدور المعلوماتي المهم حركة «الاستشراق والمستشرقين» التي أسدت خدمات جليلة في ذات الاتجاه؛ من خلال الغوص في أعماق التاريخ والإرث الإسلامي العميق، والعمل على استكشاف كل ما يمكن الاستفادة منه في خدمة الغرب في سجاله ومواجهته الإسلام عبر العالم؛ فكان عملها خير عون ومساعد للجيوش الاستعمارية الغربية في غزو واختراق الدول والمجتمعات الإسلامية.

وتمثل الأسطر التالية جانباً أولياً من الرصد والمتابعة والقراءة في مسيرة تطبيق استراتيجية الولايات المتحدة في «بناء شبكات إسلامية معتدلة» لمواجهة «السلفية» في العالم. وهذا الجهد في مجمله تلخيص لمعلومات وردت عبر مختلف الوسائط الإعلامية.

أولاً: أبعاد الاستراتيجية الأمريكية في استغلال الصوفية لترويض العالم الإسلامي:

كما هو معلوم انشغل عديد من مراكز البحوث الاستراتيجية الأمريكية فيما بعد (٢٠٠١م)، وطبقاً لموجّهات استراتيجية عليا؛ بهندسة استراتيجيات عملية لتحجيم «السلفيين» ومحاصرة ما يصفونه بـ «الإسلام السياسي»، عبر إنشاء شبكات من مجموعات إسلامية أخرى - تحديداً ممن يطلقون عليهم الجماعات الدينية التقليدية، ممثلة في (الصوفية) و(جماعة البلاغ) والعلمانيين (الليبراليين) في جانب، والشيعة في الجانب الآخر.

وكما هو معلوم أيضاً يتلخّص الدور المناط بهذه الشبكات في تحقيق القبول لأمريكا وسط المسلمين، وتحسين صورتها ومساعدتها على خلق بيئة هادئة لعمل استراتيجياتها التي تنشط داخل أرجاء العالم الإسلامي.

ولم يعد سراً اعتماد الاستراتيجية الأمريكية «الإسلامية الجديدة» على تدشين عملية بعث الفكر الصوفي والطقوس الصوفية بَدءاً بتوثيق الصلات الأمريكية مع المشيخات والطرق الصوفية التي اختيرت بعناية فائقة للعب الدور المنتظر منها، وظهر بجلاء انخراط البعثات الدبلوماسية الأمريكية في مهام جديدة عبر صندوق سفرائها لإعادة إحياء المقامات والأضرحة من أجل إعلاء المؤثرات الروحية الصوفية التي يرون فيها سبيلاً للقضاء على تأثيرات التيارات «المتشددة». وبالطبع، تنتظر أمريكا مردوداً سريعاً لذلك العمل المشترك - سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

الدراسات الأمريكية التي تناولت الإشارة للصوفية كبُعد استراتيجي للولايات المتحدة	
الجهة	الفعالية
مؤسسة راند	عام ٢٠٠٣م - دراسة بعنوان: الإسلام المدني الديمقراطي
مركز نكسون للدراسات	عام ٢٠٠٤م - مؤتمر بعنوان: فهم الصوفية ودورها المحتمل في سياسة الولايات المتحدة
معهد الولايات المتحدة للسلام	عام ٢٠٠٥ - دراسة بعنوان: الإسلام السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء
مؤسسة راند	عام ٢٠٠٧م - دراسة بعنوان: بناء شبكات إسلامية معتدلة
مؤسسة كارنجي للأبحاث	عام ٢٠٠٧م - دراسة موسعة: الصوفية في آسيا الوسطى
مؤسسة راند	عام ٢٠٠٩ - دراسة بعنوان: الإسلام الراديكالي في شرق إفريقيا

١- منبع اهتمام أمريكا بالصوفية:

على امتداد سنوات العقد الماضي تركز اهتمام الإدارات الأمريكية المتعاقبة على الجماعات الصوفية في باكستان والصومال والسودان ومصر والأردن، وبعض

دول المغرب العربي، ودول أوروبا وأمريكا.

ومبعث هذا الاهتمام الكبير بالصوفية، والفئات الأخرى؛ هو بحث أمريكا عن شريك داخل جسد الأمة المسلمة يمكن أن تنفذ من خلاله استراتيجياً إلى تحجيم وإبعاد التيارات السلفية التي تقف حجر عثرة أمام هيمنتها على المسلمين ومسعاها لإقصاء الإسلام من حياتهم. وقد وجد الباحثون الأمريكان هذه الضآلة المنشودة في الصوفية بصورة مركزية، من خلال وجهات نظر عديدة:

❖ **فكرياً**: يرى الأمريكان أن «فرق المتصوفة» و«النخب الليبرالية» على امتداد العالم الإسلامي، هم أكثر المجموعات التي يسهل استيعابها وانخراطها في المشروع الأمريكي لمواجهة «المد السلفي» و«الإسلام السياسي» في العالم؛ لما يتمتعون به من رغبة قوية واستعداد ذاتي للالتقاء والعمل مع الآخرين من أجل إقصاء «السلفية» من واجهة التأثير في العالم الإسلامي.

❖ **دينياً**: يتصور الغرب، وأمريكا على وجه الخصوص، أن الصوفية أكثر الفئات المسلمة تساهلاً في اتباع السنة وأعلاها احتفاء بالمبتدعات وأقلها في جانب تطبيق النصوص المنادية بالعمل بفهم السلف الصالح؛ ولذا يعتبرونهم غير متشددين في التطبيق والممارسة، بينما يشيدون بما يتميز به الفكر الصوفي من تقديس الأضرحة والمشايخ وحب الإنشاد والميل للطقوس الاحتفالية والموالد، فهي أمور يرتضونها ويعتبرونها ممثلاً للإسلام «الوسطي»!، وهم على استعداد لدعم انتشارها وترويجها في المجتمعات الإسلامية.. وهذا بالطبع مردّه إلى أن النصرانية واليهودية لا ترغبان في وجود أمة إسلامية قوية في عقيدتها وارتباطها بربها ونبيها حتى تسهل مهمتهما بين المسلمين.

❖**سياسياً**: يتصوّرون أن الفرق الصوفية أكثر المسلمين اعتدالاً، وأكثرها ابتعاداً عن العمل السياسي ونهج العنف. وطبقاً لذلك هم يتصوّرون أن المتصوفة أكثر عداء «للإسلام السياسي»، وأقل إلحاحاً في المطالبة بتطبيق الشريعة، ولا يعملون بصورة منظمة من أجل انتقال بلدانهم للحكم بالإسلام.. ولهذه الخصائص السياسية التي يتوقعونها من الصوفية فقد جعلوهم في تلاق كبير مع الليبراليين لتشكيل جبهة للوقوف ضد خصومهم هؤلاء لمحاربة «التطرف والغلو»! بحد زعمهم.

خلاصة الدراسات الأمريكية التي بُنيت عليها استراتيجية استغلال التصوف
❖ الصوفية تمثل: «البديل الثقافي والاجتماعي والدين الأساسي لمواجهة الأشكال الأيديولوجية للإسلام المهيمنة حالياً في العالم الإسلامي».
❖ الصوفية هي: «الإسلام الذي يمكن أن تتعامل معه أمريكا والغرب، حيث يمكن أن تقدم مساعدة عظيمة للعالم، وذلك عبر مواقفهم من الاستقلال والتعددية واحترام الأديان والعقائد الأخرى».
❖ الصوفية تعتبر: أوضح خيار للمسلمين للمصالحة بين «العالم اليهودي - المسيحي» و«العالم الإسلامي».

٢- السفارات الأمريكية تسابق الزمن في تنزيل استراتيجية استغلال الصوفية:

ليس صدفة أن ينهمك الدبلوماسيون الأمريكيون في الدول الإسلامية بإبداء رعاية خاصة للطرق الصوفية، فالمعلومات التي تتناقلها الوسائط الإعلامية المختلفة تشير إلى شروع الدبلوماسية الأمريكية، من خلال السفارات الأمريكية المنتشرة عبر دول العالم الإسلامي؛ في فتح قنوات تواصل وتنسيق مع الفرق الصوفية المنتشرة في هذه الدول في إطار تنزيل استراتيجية أمريكا في استخدام التصوف في محاربة «المد السلفي» في العالم الإسلامي.

وتتسابق السفارات الأمريكية ودبلوماسيّوها في العواصم الإسلامية على خلق علاقات قوية مع مشايخ الطرق الصوفية (الذين يدين لهم جميع مريديهم بالولاء والطاعة الكاملة) عبر الزيارات واللقاءات التي تتم معهم في دورهم ومشيخاتهم، وذلك كأسلوب عملي مؤثر للنفاذ إلى قلب الطريقة الصوفية ومحبّيها، ومن ثم البناء على تلك العلاقة لخلق أرضية للعمل المشترك مع الصوفية. وسنعرض نماذج من دبلوماسية التقرب من الصوفية في الفقرات الآتية.

ثانياً: المجهودات العالمية لبعث التصوف:

الغريب أن جميع المجهودات الدولية التي تستهدف إعادة بعث التراث الصوفي وإعادة ترميم وصيانة الأضرحة والمقامات الصوفية؛ تأتي في إطار الاستراتيجية الأمريكية في نشر المنهج الصوفي وتسويقه كبديل

مقبول لتطبيق الإسلام في العالم لإحلال الإسلام القائم على المنهج السلفي.

١- مؤتمرات التصوف ذات الصبغة الدولية:

شهدت السنوات الماضية العديد من المؤتمرات والندوات التي عُقدت بغرض إحياء وبعث التراث الصوفي داخل وخارج العالم الإسلامي، وكان من أبرزها:

- ألمانيا (٢٠٠١م): المؤتمر ٢٨ للمستشرقين الألمان، بحوث بعنوان: (الأخوّة الصوفية كحركات اجتماعية)، و(الحركة النقشبندية في داغستان)، و(التيجانية في غرب إفريقيا)، و(صورة الموالد الشعبية في مصر).

- ألمانيا (٢٠٠١م): المؤتمر العالمي الأول لدراسات الشرق الأوسط، بحث بعنوان: (الإسلام الحديث والطريقة النقشبندية المجددية الصوفية)، و(الأولياء الصوفيون وغير الصوفيين).

- مصر (٢٠٠١م): مؤتمر «التصوف منهج أصيل للإصلاح»، وقد نظمته «أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث بالعشيرة المحمدية».

- مصر (٢٠٠٣م): المؤتمر العالمي للطريقة الشاذلية بمدينة الإسكندرية، وقد انعقدت جلساته في مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع (وزارة السياحة المصرية)، و(منظمة اليونسكو)، و(من دولة فرنسا كل من: وزارة الخارجية، ووزارة البحث العلمي، والمركز الوطني الفرنسي للبحوث والدراسات العلمية، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ودار العلوم الإنسانية).

- بلغاريا (٢٠٠٣م): ندوة حول (أدب التصوف في الإسلام).

- الدانمارك (٢٠٠٤م): سلسلة محاضرات عن (الحلاج وابن عربي وابن الفارض).

- المغرب (٢٠٠٤م): المؤتمر العالمي للطرق الصوفية: (لقاءات سيدي شيكر العالمية للمنتسبين إلى التصوف) تحت رعاية جلالة الملك محمد السادس.

- مالي (٢٠٠٤م): المؤتمر العالمي الأول للطرق الصوفية بغرب إفريقيا تحت شعار: (التصوف أصالة وتجدد).

- ليبيا (٢٠٠٥م): مؤتمر دولي بعنوان: (الطرق الصوفية في إفريقيا.. حاضرها ومستقبلها) تحت شعار (معاً من أجل تفعيل دور الطرق والزوايا الصوفية في إفريقيا).

- الأردن (٢٠٠٥): مؤتمر: (حقيقة الإسلام ودوره في المجتمع المعاصر) برعاية الملك عبد الله الثاني.

- الأردن (٢٠٠٧م): مؤتمر: (النزعة الصوفية في الأدب العربي) - عُقد ضمن فعاليات «إربد مدينة للثقافة الأردنية لعام ٢٠٠٧».

٢- جهود منظمة اليونسكو والولايات المتحدة لإعلاء الشِّعر الصوفي:

خصصت منظمة اليونسكو العام ٢٠٠٧ عاماً دولياً للاحتفال بالمئوية الثامنة للشاعر الصوفي «جلال الدين الرومي» (١٢٠٧ - ١٢٧٣م.. بآسيا الوسطى)، حيث دشَّنت اليونسكو هذه المناسبة بإقامة ندوة دامت يوماً كاملاً في مقرها بباريس، إلى جانب إقامة معرض للكتب والمخطوطات واللوحات التي تتناول حياة جلال الدين الرومي وأعماله.

وفي المقابل، تشهد الولايات المتحدة ترجمات غير مسبوقة للشعر الصوفي لجلال الدين الرومي، حيث تتربع مبيعات كتبه الشعرية المترجمة على رأس مبيعات الكتب في الولايات المتحدة. كما نظم مركز الدراسات الفارسية في جامعة ميريلاند الأمريكية مؤتمراً لاستكشاف شعر الرومي إضافة إلى صلته المستمرة بالعالم قديمه وحديثه.

وهناك سيل متواصل للترجمات الجديدة لمؤلفات جلال الدين الرومي الضخمة، بينما تجرى الدراسات العلمية عن حياته وأعماله بصورة مستمرة، كما تم تحويل قصائده إلى موسيقى تم عزفها على المسارح ووضعها على أقراص مدمجة ونشرها على شبكة الإنترنت في الولايات المتحدة وحول العالم.

٣- ترميم الأضرحة الصوفية بواسطة «صندوق السفراء الأمريكيين»:

في بيان صحفي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية (في ٨ يونيو ٢٠٠٩) جاء فيه أن: («صندوق السفراء الأمريكيين» لصيانة الثقافة سيقدم منحاً لمشاريع مهمة هذه السنة لترميم عدد من المعالم التاريخية والثقافية،

بينها مساجد قديمة وأضرحة ومقامات لشخصيات من الفترة الصوفية المبكرة).

وقد أشار التقرير إلى ترميم «ضريح حافظ محمد حياة» الذي يعود للقرن الثاني عشر في غوجارات، و«مقام حضرة شاه شمس تبريز» الذي يعود إلى القرن الثالث عشر في مولتان، وهما معلمان متميّزان مهمان من معالم أضرحة أئمة الصوفية المبكرة في باكستان. وقد سبق لصندوق السفراء لصون الثقافة أن دعم مشاريع أخرى في باكستان لترميم أضرحة ومقامات.

يُذكر أن هناك آليات لتمويل أنشطة الشبكات المذكورة - منها مبادرات وصناديق وأوقاف مشهورة.. فهناك ثلاثة صناديق رئيسة تعمل على توفير التمويل الذي يستهدف اختراق المجتمعات الدينية والمدنية في بلاد الشرق الأوسط المسلمة تحت عنوان (نشر الديمقراطية)، وهي صناديق تعمل على تحفيز مجموعات معينة للانخراط في تنفيذ المشروع الأمريكي في المنطقة

٤ - جهود بعث التصوف في باكستان:

لتحسين صورتها بين المسلمين في باكستان، تهتم الولايات المتحدة بالصوفية لقطع الطريق على «الإرهابيين والمتشددين من جهة أخرى» — حسب زعمها؛ ولذا خططت لإقامة مؤتمر دولي للصوفية في مواجهة «أفكار التشدد» في العالم الإسلامي (فبراير ٢٠١٠م)، بجانب قيام السفيرة الأمريكية بباكستان في ٢١ أبريل ٢٠١٠م بالتوقيع على معاهدة بينها وبين اتحاد الصوفية في باكستان، قدمت لرئيسه مليوناً ونصف المليون دولار، لتزيين «الأماكن المقدسة» للصوفية في باكستان، وترميم المزارات التاريخية وصيانتها، إلى جانب بناء قُبب جديدة على المزارات المختلفة.

وقد بدأت الحكومة الباكستانية منذ عهد الرئيس «برويز مشرّف» بالاهتمام بالصوفية كقوة كامنة في مواجهة الخصوم - خاصة الإسلاميين، فقد كان «مشرّف» أول من اهتم بهم، ونظّم مؤتمراً للصوفية في باكستان شارك فيه ما لا يقل عن ألفي شخص يمثلون ٢٠٠ فرقة وجماعة من مختلف المشارب والأطياف الروحية الموجودة في باكستان. وانطلقت الحكومة الباكستانية في تنظيم الصوفية بهيئة عليا للصوفية من جهة ومجلس أعلى لمشايخ الصوفية أيضاً، ومهمتهما تنظيم الصوفية الباكستانيين، وتقديم الدعم المادي لهم، وتسهيل أعمالهم، وفتح مزيد من المراكز الدينية لجعلهم يمارسون نشاطهم دون عقبات.

وكان أول أعمال المجلس العالمي للصوفية إصداره فتوى تحرّم «العمليات الانتحارية» في باكستان، واعتبارها غير جائزة، كما أصدر فتاوى أخرى اعتبر فيها طالبان خارجة عن الدين وجماعة باغية يجب التعامل معها بما ينص عليه الدين الإسلامي!

كما يجري في باكستان ترويج الموسيقا الصوفية، خاصة فرقة القوالي الباكستانية (فريد أياز قوال وإخوانه) التي تغني القصائد الصوفية باللغة العربية والفارسية والهندية والأوردية والبنغالية، بمصاحبة موسيقى «القوالي» الصوفية الباكستانية والإيرانية.

٥ - حركة التأصيل الشرعي للتصوف التي تنتظم العالم اليوم:

أما حركة التأصيل الشرعي للفكر الصوفي من حيث المعتقدات والممارسة والتطبيق، فيمكن تلخيصها في عدة نقاط، أبرزها ما يلي:

- الإفتاء بجواز تعدّد الطرق والاختلاف والتفرق.
- محاربة التوحيد الحق واعتبار الدعوة له بدعة وخروجاً عن الملة.
- نشر العقيدة الأشعرية واعتبار عقيدة السلف تجسيماً.
- إجازة جميع أبواب الشرك التي حرّمتها الشريعة.
- الافتاء بجواز التعبّد بالأذكار والأوراد التي يؤلفها المشايخ.
- إباحة البدع وإيجاد المسوغ الشرعي لها.
- إباحة الاحتفال بالموالد والحضرات (الذكر على أنغام الموسيقى وآلات الطرب).

ثالثاً: إطلاق موجات حرق وهدم للأضرحة الصوفية للإيقاع بالسلفيين:

لقد هدف هذا المخطط البغيض إلى إحداث فتن ومواجهات دموية بين الصوفية والسلفيين عبر استهداف هدم أضرحة بعض مشايخ الطرق الصوفية في عديد من الدول الإسلامية.

❖ ففي السودان جرت عدة محاولات لتخريب وحرق بعض الأضرحة، منها: تخريب ضريحي الشيخ إدريس ود الأرباب والشيخ المقابلي (بالعيلفون)، والاعتداء على ضريح الشيخ حسوبة (بسوبا شرق - الخرطوم)، وتخريب ضريح الشيخ حمد ود أم مريوم (ببحري)، وتخريب مقابر العيدج والبنداري (ببحري)، والاعتداء على ضريح الأمين البطحاني (بشرق النيل)، والاعتداء على ضريح الفكي هاشم (بشمال بحري)، وضريح الشيخ بابكر محمد سعيد (بالكريعات شرق تمبول)، وضريح الشيخ السنوسي (بنيالا - دارفور). وقد تمت معظم هذه المحاولات بين ٢٠١١ و٢٠١٢.

❖ وفي مصر - بعد الثورة - تم الاعتداء على ضريح الشيخ عز الدين (بالمنوفية)، وأضرحة للشاذلية وبعض الطرق الصوفية الأخرى.

❖ وفي تونس - بعد الثورة - دُمّر ضريح الشيخ بوسعيد الباجي، وتعرض مقام الشيخ أحمد الورفلي للتخريب (باكودة)، إضافة إلى أضرحة أخرى.

❖ وفي ليبيا - بعد الثورة - تم الاعتداء على عدد من الأضرحة، منها: ضريح الشيخ أحمد الزروق (بمصراتة)، والشيخ الشعاب الدهماني (بالقرب من طرابلس)، والشيخ عبد السلام الأسمر (بزليتين – أغسطس ٢٠١٢).

❖ وفي الصومال جرت محاولة هدم ضريح الشيخ محيي الدين العلي، والشيخ أحمد الحاج (مارس ٢٠١٠).

❖ وفي مالي دُمّرت بعض مقامات وأضرحة مدينة تمبكتو (يوليو ٢٠١٢).

ويبدو أن هناك جهة واحدة أو عدة جهات مشتركة لها هدف مركزي واحد، هو الإيقاع والمصادمة بين السلفيين والطرق الصوفية على امتداد العالم الإسلامي، ومن ثم تأزيم العلاقة بين الطرفين، وربما الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة المواجهات وتصفية الحسابات.

والغريب حقاً أن الأحداث التي تكررت في السودان – على وجه الخصوص - لم تستطع الجهات الأمنية القبض على أي جناة أو توجيه أي اتهام رسمي لأي جهة إسلامية بعينها، وظلت القضايا مسجلة ضد مجهول!

رابعاً: مجهودات الدول العربية في بعث التصوف:

١ - صور من إحياء الصوفية في دولة المغرب:

تعمل السياسة الدينية التي انتهجتها الدولة المغربية على إحياء وتنشيط التراث والثقافة الصوفية ممثلة في المواسم الدينية، والمهرجانات واللقاءات العالمية للمنتسبين للتصوف، وإحياء وتشجيع الزوايا والطرق الصوفية، وتقديم كافة أشكال الدعم لها، خاصة الطرق: «التيجانية» و«البودشيشية» و«الكتانية». ولقد استطاعت «الطريقة القادرية البودشيشية» أن تنال سلطة معنوية يحسب لها ألف حساب، وأن تكون لها علاقات وطيدة مع هيئات دبلوماسية لبلدان عظمى، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وأن تستقطب أتباعاً بالملايين داخل المغرب وخارجه.

كما تعكس المهرجانات الصوفية في المغرب محاولات الحكومة المغربية توظيف التصوف في لعبة التوازنات السياسية، بتعزيز الصوفية في البلد كحل لمواجهة صعود «الحركات الأصولية غير المعتدلة والمتطرفة»، سيراً على درب الموجّهات الأمريكية.. ومن هذه المهرجانات:

- مهرجان بمدينة مراكش باسم الدورة الدولية الأولى للقاءات والموسيقى الصوفية، تحت شعار: «سماع مراكش»، أقامته جمعية (منية مراكش لصيانة وإحياء تراث المملكة المغربية).

- ومهرجان بمدينة فاس حول الثقافة الصوفية، تحت شعار: «مهرجان فاس للثقافة الصوفية: التصوف والتنمية الإنسانية»، أقامه (مجمع المسالك والتصورات).

وقد أفادت الشاعرة والكاتبة «ثريا إقبال»، مؤسِّسة جمعية (منية مراكش)، بأن اختيار أماكن أنشطة المهرجان مدروس جداً، حيث اختيرت الزوايا والقصور والأضرحة والحدائق بعناية فائقة.

وأضافت مؤسِّسة الجمعية أن الهدف من المهرجان هو

تسليط الضوء وإعادة الاعتبار إلى الغنى الروحي والثقافي للمغرب، معتبرة أن: (الصوفية حقيقة أساسية في الدين والتي يصعب تناسيها والتي يجب إعادة اكتشافها وتذوّقها والسهر على المحافظة عليها لإيصال رسالة العرفان والحب التي تحتويها إلى العالم الذي بات يفتقد أكثر ما يفتقد إلى القيم الروحية والدينية).

وتشمل مواضيع «مجالس التصوف» التي نوقشت في فعاليات المهرجان:

«المحبة الخالصة: نموذج السيدة رابعة العدوية».

«خزائن الجود: نموذج أبو العباس السبتي».

«خمرة المحبة في ترجمان الأشواق للشيخ محيي الدين بن عربي».

«وتركز الندوات على موضوع «التصوف شجرة المعرفة والمحبة».

٢- صور من بعث الصوفية في دولة الأردن:

كما في غيرها من الدول العربية، يجري الترويج للتراث الصوفي في الأردن عبر آليات عديدة تحاول التأطير الفكري للتصوف كبديل يمكن تسويقه لممارسة الإسلام في الأردن، كما حاول تصويره الدكتور عبدالله الناصر حلمي في مقالة بعنوان: «إسلام الصوفية هو الحل لا إسلام الخوارج (التصوف جهاد ضد هوى النفس وضد الطغيان والجبروت)»، حيث سوّق للأردنيين ضرورة العمل بالتصوف قائلاً: «فلنتجه إلى رسالة التصوف نستمد منها القوة الخلقية، والعزة الإيمانية، والفضائل الروحية، فنتخذها درعاً وحصناً يقي أمتنا ويحميها، ومعراجاً تصعد عليه إلى أهدافها وأمانيها. يجب أن يشع الروح الصوفي، الطاهر المؤمن القوي، في حياتنا ووجودنا، وأن نجعله مادة في معاهدنا ومدارسنا، ونوراً في صحفنا وكتبنا وإذاعاتنا، وحياة ملهمة في كل مرفق من مرافق نهضتنا. حينئذ نظفر برضوان الله، وبسيادة الحياة، وتمتلئ أيدينا بعزة الصوفيين، وبأس المؤمنين..)

وفي ذات الخط كان مؤتمر (النزعة الصوفية في الأدب العربي) بمدينة إربد قد سار مروّجاً للتصوف وأدبياته الشعرية، حيث تناولت أوراقه عناوين عديدة، من بينها: (التصوف بين الدين والفلسفة: محاولة في تحديد المفهوم)، (التأمل الصوفي في الخلق والفيزياء الحديثة)، (بين التجربتين: الجمالية والصوفية)، (قراءة في ديوان ابن عربي - ترجمان الأشواق)، (فلسفة العلامة وتأويلها بين بيرس وابن عربي)، (الجسم في تأويلات ابن عربي – سر مبهم وكشف أعجمي لنشأة ليليه)، (الصوفية في شعر صلاح عبد الصبور)، (النزعة الصوفية عند محمد أبو دومة)، (النزعة الصوفية في الشعر العربي القديم نقداً)، (الوجه الأدبي عند النفري قدمها الدكتور نصر الدين بيبرس)، (النزعة الصوفية في شعر محمد الفيتوري)، (النزعة الصوفية في الأدب العربي الحديث – عمر الياي في نموذجاً)، و(تمثلات صوفية في شعر أدونيس)

خامساً: الدبلوماسية الأمريكية ومشروع التحالف «الصوفي - الأمريكي»:

عربياً، تهدف أمريكا إلى دعم الطرق الصوفية عبر إعادة إعمار المزارات والأضرحة، ونشر المؤلفات الصوفية، والمشاركة الدبلوماسية في بعض أنشطة الصوفية، إضافة إلى تمتين العلاقات الحميمية مع طرقها وشيوخها ورموزها، وبالطبع يطول ذلك تبادل الزيارات وحضور الموالد الصوفية وعقد الاتفاقيات والمؤتمرات المشتركة مع الصوفية.

وفي هذا الإطار يمكن استعراض نموذجين للدبلوماسية الأمريكية في تنفيذ برنامجها الميداني للتقارب مع صوفية مصر والسودان:

١- السفارة الأمريكية في دولة مصر .. والتقارب مع الصوفية:

يمكن ذكر النماذج الموجزة التالية حول التقارب الصوفي الأمريكي:

- لقاء السفير الأمريكي بمصر (فرنسيس ريتشارد دوني) الشيخ حسن الشناوي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية.

- زيارة السفير الأمريكي الطريقة الجازولية ومشاركته أبناء الطريقة وهم ينشدون المدائح النبوية

والأناشيد الدينية.

- زيارة السفير الأمريكي مولد «السيد البدوي» بمدينة طنطا للعام الثالث على التوالي، ولقاؤه مشايخ الطرق الصوفية.

- زيارة جواند كاردنو القنصل الأمريكي في الإسكندرية ضريح الشيخ مرسي أبي العباس.

- اختيار المجلس الأعلى للطرق الصوفية وفداً صوفياً من ١٥ شيخاً من الطرق الصوفية للمشاركة في مؤتمر «رجل السلام العالمي» بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو مؤتمر يعقد بهدف توضيح الصورة السمحة للإسلام.

- قيام ١٦ شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية، على رأسهم الشيخ علاء أبو العزايم (شيخ الطريقة العزمية)؛ بعقد اجتماع مع سكرتير السفارة الأمريكية ممثلاً للإدارة الأمريكية في مقر الطريقة العزمية بمنطقة «السيدة زينب»، بحضور ممثل لجهاز مباحث أمن الدولة.. وخلص اللقاء إلى أن تستضيف الإدارة الأمريكية مشايخ الصوفية على نفقتها الخاصة لتنظيم عديد من الفعاليات والأنشطة، والقيام بزيارات إلى الولايات المتحدة لنشر الصوفية بين المسلمين الأمريكيين.

ومن جهة ربط التصوف المصري بالتصوف العالمي، تمَّ تأسيس فرع للمجلس الصوفي العالمي المسجل في بريطانيا، ليكون أول منظمة مصرية عالمية (تحت اسم «المجلس الصوفي العالمي») لنشر الفكر الصوفي، وهو برئاسة شيخ الطريقة الشهاوية البرهامية (محمد الشهاوي). وقد أنشئ هذا المجلس الصوفي بدعم من الحكومة البريطانية وحزب العمال في مواجهة المجلس الإسلامي البريطاني.

٢ - السفارة الأمريكية في دولة السودان.. والتقارب مع الصوفية:

من خلال القائم بالأعمال الأمريكي في السودان (جوزيف ستافورد)، تنهمك الدبلوماسية الأمريكية في مهمة استقطاب الطرق الصوفية السودانية بمشاربها المختلفة للانخرط في المشروع الأمريكي. وكان من الطبيعي استخدام الدبلوماسية الشعبية والزيارات الودية وتبادل الهدايا ومشاركة الصوفية في حلقات ذكرهم ضمن الوسائل الأساسية في بناء شبكة العلاقات الأمريكية مع صوفية السودان.

وقد اختار القائم بالأعمال الأمريكية - ابتداء - المجموعات الصوفية المنتمية إلى «الطريقة القادرية الجيلانية» (نسبة لمؤسسها الأول عبد القادر الجيلاني)، ذات الانتشار الأوسع في السودان مقارنة بالطرق الصوفية السودانية الأخرى. فقد كان من بين رئاسات الطرق القادرية التي زارها الدبلوماسي الأمريكي ما يلي:

- الطريقة البدرية بمنطقة «أم ضوا بان» (ولاية الخرطوم).
- الطريقة العركية بمنطقة «أبو حراز» (ولاية الجزيرة).
- الطريقة الكباشية بمنطقة الكباشي (ولاية الخرطوم).
- مشيخة الصايم ديمة بمنطقة أم درمان (ولاية الخرطوم).
- مقام/ ضريح حمد النيل، التابع للطريقة العركية بمنطقة أم درمان (ولاية الخرطوم).

ومن قبل كان الدبلوماسي الأمريكي قد زار الطريقة البرهانية بالخرطوم أيضاً.

وفي كل المناطق التي زارها «القطب» الدبلوماسي الأمريكي بالسودان، كانت البداية مبشِّرة لمشروعه؛ فقد وجد الترحيب الحار من زعماء الطرق الصوفية التي زارها، ونحرت الذباح على شرفه، وأُلبس الحلل الصوفية الخضراء، وزُيّن بالمسبحة الصوفية، ولم ينسَ مضيفه إشراكه في حلقات ذكرهم في بعض المناطق التي زارها.

ويشهد التصوف في السودان حركة بعث وتجديد وعرض في ثوب جديد؛ فقد أنشئ مجلس أعلى للتصوف، وكُوِّنت عديد من روابط الطلاب المتصوفة في الجامعات، وأنشئ مجلس أعلى للذكر والذاكرين

بقانون صادر من المجلس التشريعي السوداني، وأطلقت قناة تلفزيونية وإذاعة لنشر المنهج الصوفي، وأنشئ تجمع لعلماء التصوف، وانتشرت عدة فرق موسيقية للإنشاد الصوفي تتغنى بأشعار مشايخ الصوفية.

سادساً: تحديات تطبيق المشروع الأمريكي لاستغلال التصوف:

في بحث تحت عنوان: (الصوفية.. بين الهوية والاعتدال والإنسانية)، طرح الباحث الأمريكي «أبو بكر كروليا» سؤالاً منطقياً حول استعداد الصوفية وقابليتها للانخراط في المشروع الأمريكي، عندما تساءل: «هل تقوم المجتمعات الصوفية في الغرب والأماكن الأخرى بإعداد نفسها أيديولوجياً لبناء وجهة نظر عالمية والانخراط بصدق مع الغرب لوضع إطار أخلاقي ومعنوي لإقامة العدل والمساواة..؟».. إلا أن الباحث اكتفى بعرض السؤال وأعرض عن الغوص في أعماق الإجابة، تاركاً ذلك للصوفية أنفسهم؟

وانتقل الباحث إلى القضية الأهم في الجانب الآخر، ليتناول طبيعة الشريك الأمريكي وفرص نجاح مثل هذه الشراكات مع المتصوفة، فيقول مبيّناً عن حكومة الولايات المتحدة: «يجب أن تكون واعية لحقيقة أنها شريك في العالم، وأنه لا يمكن حتى للصوفية التفاوض أو الحوار مع شريك تقتصر مصلحته على «بناء عالم من المصلحة الذاتية» على أساس الهيمنة والسلطة»!

ثم بيَّن الباحث أن الاستراتيجية الأمريكية - الصوفية صائرة إلى فشل حتمي على المدى الطويل بسبب طبيعة الشريك الأمريكي، حيث يقول: «سياسة الحكومة الأمريكية لإدماج «الصوفية المعتدلة» و«المسلمين التقليديين» أو «الحكومات الصديقة»؛ ستحقق بعض النجاح، لكن نهجها الأصيل في سياستها «السياسية» و«الاجتماعية» ليس له استدامة على المدى الطويل لإقناع المسلمين، وذلك بسبب فرط استخدام القوة الأمريكية التي تضر أكثر مما تسعى إلى تحقيقه من أهداف ثقافية متعددة وأهداف تعددية للسلام والعدالة».

إذن؛ فالمصالح الذاتية هي المحرك للمشروع الأمريكي طبقاً لما يراه الباحث، وليس الحرص على إشاعة العدل والسلام كما هو الادِّعاء؟.. فما سيحدّد فرص نجاح «المشروع الأمريكي - الصوفي» هو مدى استعداد الشريك الأمريكي للتنازل عن مبدأ استغلال الآخر وترك الهيمنة والتسلط في مقابل التعامل مع شريكه بمبدأ الندية وعدم الازدواجية والالتفاف.

وانطلاقاً من ذات السياق، تبرز جملة من التحديات لسياسة تمكين الصوفية من قيادة العالم الإسلامي، يتلخص أبرزها في التالي:

التحدي الأول: يتمثل في التشكيك بإمكانية نجاح عملية بناء الشبكات (الصوفية - الليبرالية) بالطريقة التي ترغب فيها الولايات المتحدة، وبالأهداف المرجوة من صياغة شعوب مسلمة لا تبالي بدينها، وتترك الساحة لأعدائها، وتقصر تديّنها على الروحانيات والتبرك بالمقامات وتركن إلى العقائد والأذكار الباطلة.

التحدي الثاني: وينطوي على التشكيك بامتلاك الصوفية مقومات قيادة الشعوب المسلمة، أو امتلاك القدرات الخارقة لمغالبة القيادة الإسلامية الحالية التي تقود صحوة دينية قوامها التأصيل الشرعي وتظهر مجهوداتها الفذة في طرح الإسلام كمنهج حياة، ولا تكلّ عن العمل على إعادة تجميع الأمة تحت الكتاب والسنة المطهرة في حدود الممكن.

ويأتي في صلب هذا التحدي التساؤل عن مدى إمكانية دمج جميع الطرق الصوفية في المشروع الأمريكي - تحديداً الطرق الموجودة في البلدان العربية، خاصة في ظل التقاطعات والعلاقات التي تحكم وجود الصوفية في بلدانها.

التحدي الثالث: وينطوي على التشكيك بمدى مصداقية الولايات المتحدة في اتخاذ الصوفية كشريك إسلامي استراتيجي لتمثيل الأمة الإسلامية، وبمدى صبرها على السير في طريق طويل (يستهدف إعادة صياغة كامل الأمة الإسلامية على الطريقة الأمريكية) في مقابل تحقيق نجاح مشكوك فيه أصلاً.

يضاف إلى ذلك التشكيك في مدى تحمّل الميزانية

الأمريكية «المرهقة» عمليات الصرف إلى ما لا نهاية على استراتيجية يرتهن تطبيقها «بالوكالة» على أطراف لم تخبرها الإدارة الأمريكية جيداً – سوى التعويل عليها من خلال فرضيات وتوقعات المراكز البحثية الأمريكية.

الدور المنتظر من الجماعات السلفية:

لقد انتهت مرحلة رسم الاستراتيجيات من قِبل الأمريكان والغرب عموماً، وانطلق العمل في بناء شبكة علاقات عمل ومصالح متبادلة بين الطرف الأمريكي وبعض الطرق والكيانات الصوفية داخل حدود كل بلد، وشبكات شبهية عابرة للحدود، وأخرى على مستوى العالم، (مثل المجلس الصوفي العالمي ببريطانيا تحت زعامة الطريقة الشهاوية البرهامية، والمجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا تحت زعامة الطريقة النقشبندية).

وإزاء ذلك، هناك دور متعاظم ينتظر «السلفيين»، ويتمثل في كشف استراتيجيات وخطط خصومهم من جانب، والعمل على تضافر الجهود والإمكانات لمواجهة الخطط والسياسات العملية التي أفرزتها هذه الاستراتيجيات من جانب آخر. وهذا الدور له صلة وثيقة بتفعيل الحوار والتواصل داخل البيت السلفي – ما بين العلماء، والخبراء، والقادة، والدعاة، والباحثين، وأصحاب الثروة، والهيئات الرسمية والمدنية، وكلّ قادر على العطاء من أهل الإسلام.

وإذا لم يتيسَّر للسلفيين إطلاق برامج التبصير والمواجهة من خلال الأوعية الرسمية، فيتعيَّن على مؤسسات المجتمع المدني الإسلامية أن تقوم بالمهمة. ويمكن التوجيه في هذا الخصوص بالتدابير الابتدائية التالية:

- بناء شبكة سلفية دولية لمواجهة هذه الاستراتيجية تعمل على الاتصال والحوار مع الأطراف التي تسعى أمريكا لاستخدامها في إنزال الخطط الاستراتيجية، وذلك من أجل تحييدها وتبصيرها بسوء العاقبة من الانخراط في ذلك العمل المعادي للإسلام والمسلمين.
- عقد منتديات عالمية (ورش دولية) يحضرها السلفيون الذين تستهدفهم الاستراتيجية الأمريكية؛ لمناقشة آخر التطورات على المستوى التطبيقي للاستراتيجية في المنطقة الإسلامية، وتقديم أوراق علمية تعالج قضية إفشال المشروع الأمريكي. ولا غنى عن تكليف مجموعة مختارة عبر المؤتمر بمهمة قيادة هذا العمل المشترك وتطوير آليات عمل مناسبة لذلك؛ (جمع قاعدة معلومات واسعة من خلال البحث والاستقصاء والرصد والمتابعة والتحليل).

ولعل أكبر تحديات الاستراتيجية المضادة للمشروع الأمريكي، يكمن في مدى نجاح المجموعات السلفية بإبعاد الصوفية وتحييدها عن المشاركة في الاستراتيجية الأمريكية، وذلك من خلال التواصل واللقاءات والحوار بين السلفيين والصوفية.

وهنا لا بد من التأكيد على أن الصوفية ككيان إسلامي معنيّون – قبل غيرهم – بمواجهة هذا المشرع الأمريكي الذي يسعى لاختراقهم والعمل من خلال مؤسساتهم على ضرب الإسلام من الداخل، وأخذهم في مجاهيل صراعات مع السلفيين «مجهولة الهوية» و«غير محسوبة» النتائج.

وقبل كل شيء لا بد من التوكل والاستعانة بالله تعالى كما هو شأن المسلم دوماً، فالله تعالى يعلم بخطط القوم واستراتيجياتهم، وقد فضح أعمالهم في كتابه العزيز؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦- ٣٧].





(١) الاعتقاد في الصحابة وبيان فرق الشيعة ومشابهتهم لليهود للإمام عبد القادر الجيلاني
(٢) الروض الرائض في عدم صحة نكاح أهل السنة للروافض للعلامة علي المرادي الحنفي

عرض: أسامة شحادة(*)– خاص بالراصد

صدر هذان الكتابان حديثاً عن مكتبة الإمام البخاري بالقاهرة، وهما بتحقيق وتعليق الأستاذ عبدالعزيز بن صالح المحمود، وهو الباحث المتخصص في الفكر الشيعي وصاحب المقالات المتميزة في الراصد.

الكتاب الأول (الاعتقاد في الصحابة وبيان فرق الشيعة ومشابهتهم لليهود) مستل من كتاب الغنية لعبد القادر الجيلاني، والجيلاني هو من أعلام التصوف وتنسب له مئات الطرق الصوفية القادرية، ومن هنا تنبع أهمية الكتاب، فقد قام الشيعة الرافضة عبر التاريخ بمحاولة خداع بعض التيارات الصوفية واستغلالها لنشر التشيع في أوساط المسلمين السنة، وفعلا نجح الشيعة في استمالة بعض الطرق الصوفية للتشيع كالصفويين قديماً والطريقة العزمية في مصر حالياً، بالإضافة إلى عدد من الشخصيات الصوفية المعاصرة والتي تقبلت التشيع مثل: حسن شحاته بمصر، أحمد حسون بسوريا، والنيّل أبو قرون في السودان.

لكن المحمود أراد التنبيه على أن هناك جهداً صوفياً قديماً وكبيراً في مقاومة التشيع وأنه هو الأصل الذي يجب أن يلتزم به الصوفيون، إذ التصوف يحترم ويجلّ الصحابة بخلاف الشيعة الذين يعادون الصحابة ويكفرونهم!!

ومن هنا جاء اختيار المحمود لكلام عبدالقادر الجيلاني في مقاومة التشيع من كتابه المشهور (الغنية)، لكن الإضافة المهمة هنا أن المحقق المحمود كشف

(*) كاتب أردني.

عن وجود سقط صفحة كاملة في النسخة المطبوعة تتناول مشابهة الشيعة الرافضة لليهود!!

ولم يجزم المحمود بسبب السقط هل هو من محقق النسخة المطبوعة د. فرج توفيق وليد أو رقابة وزارة الاعلام العراقية في الثمانينيات، لكنه يعتب على د. فرج والناشر أنهما لم يبرآ ساحتهما ولو في مقال إذا كان هذا السقط رغماً عنهما.

قام المحمود في هذا الكتاب بجمع كلام الجيلاني في أربع قضايا، هي:

١- العقيدة الإسلامية في الصحابة، وهي من مفاصل الخلاف مع الشيعة.

٢- التحذير من البدع وأهلها.

٣- التحذير من الفرق المبتدعة وخاصة الرافضة مع عرض عقائدهم الباطلة وفرقهم المختلفة.

٤- مشابهة الرافضة لليهود.

والخلاصة التي نخرج بها من هذا الكتاب أن أهل السنة بمختلف مذاهبهم ومدارسهم متفقون على نبذ التشيع وعقائده الباطلة في الإمامة والصحابة والقرآن وغيرها من بدع الرافضة.

أما الكتاب الثاني (الروض الرائض في عدم صحة نكاح أهل السنة للروافض)، فهو جواب عن سؤال وجه سنة ١١٨٢هـ إلى مفتي بلاد الشام العلامة علي المرادي الحنفي (١١٣٢- ١١٨٤هـ)، من قاضي القضاة بدمشق السيد محمد أمين القاضي، عن حكم تزويج بعض الشيعة الذين جاؤوا لدمشق في طريقهم للحج، لكنهم تأخروا، وفاتهم الحج فمكثوا في دمشق انتظارا للحج العام القادم.

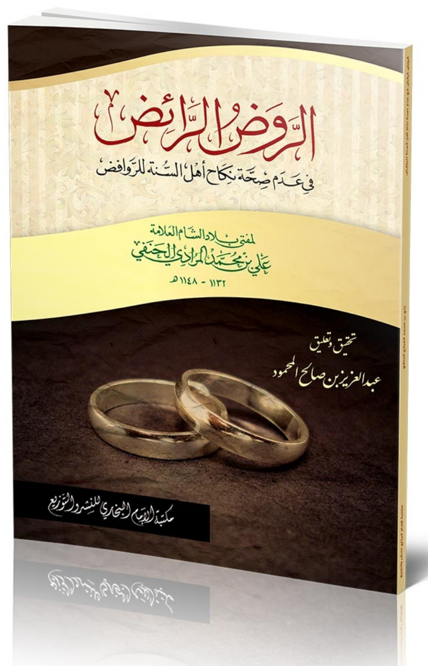
فجاء الجواب بالمنع من تزويجهم، وذلك من خلال النقاط التالية:

١- أن الزواج متعلق بالكفاءة، وحكم الرافضة هو الردة والكفر.

٢- الكفاءة عند الأحناف تشمل العقيدة، وعقيدة السني تخالف الشيعي فتنتفي الكفاءة.

٣- إذا كان الفاسق غير كفؤ للمسلمة فكيف بالمبتدع في أحسن أحواله؟

وقد اعتمد المفتي على كتب الأحناف وأقوال علمائهم، مما يؤكد أن مباينة الشيعة لأهل السنة قضية محسومة عند مذاهب أهل السنة، وأن الخلاف مع الشيعة خلاف سني شيعي وليس كما يزعم الشيعة أنه خلاف وهابي أو سلفي شيعي!!



وينبه المحقق الأستاذ عبد العزيز المحمود إلى ضرورة بعث التراث الفقهي والعقدي السني في بيان حقيقة الشيعة لكافة المذاهب السنية حتى ندرك شمولية الخلاف السني الشيعي، والذي تجسد اليوم في تحالف الشيعة والنصيرية ضد كل السنة في سوريا، والذي لم يتورع عن قتلهم بالجملة وبكافة الأسلحة دون تفريق بين سلفي ومذهبي أو صوفي، أو كبير وصغير، وبين ثائر أو مدني.



إغلاق دور القرآن الكريم بين التفاعل الوطني وغياب الانسجام الحكومي

نبيل غزال – موقع هسبريس ٢٠١٣/٧/١٧

أيام قليلة قبل أن يحل شهر القرآن أغلقت دور القرآن في بمدينة مراكش، وهو توقيت دفع العديد من الفعاليات والجهات إلى وضع أكثر من علامة استفهام، وإلى التساؤل بإلحاح عن سبب اختيار هذ التوقيت بالذات، على اعتبار أن هذا السلوك المستفز تكرر غير ما مرة؛ كان آخرها إغلاق جمعية القاضي عياض لتحفيظ القرآن الكريم بمدينة سلا في العشر الأواخر من رمضان سنة ٢٠٠٨م، ولازالت هذه الجمعية المدنية التي كان يستفيد من أنشطتها الآلاف من ساكنة سلا، إلى حدود كتابة هذه الأسطر موصدة الأبواب دون أي سند قانوني.

فبعد مضي سنتين بالتمام والكمال على الدستور الجديد الذي صوت عليه الشعب بأغلبية مطلقة، وأكد في فصله الثاني عشر (١٢) على أن:

(جمعيات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية تُؤسس وتمارس أنشطتها بحرية، في نطاق احترام الدستور والقانون. ولا يمكن حل هذه الجمعيات والمنظمات أو توقيفها من لدن السلطات العمومية، إلا بمقتضى مقرر قضائي).

بعد مضي ٢٤ شهرا على هذا الحدث المهم في تاريخ المغرب الحديث جاء التنزيل العملي لهذا الدستور، بأن باشرت السلطات العمومية إغلاق مقرات جمعية الدعوة إلى القرآن والسنة، التي تعمل في إطار قانون الحريات العامة، بدعوة أن هذه الجمعية تعمل خارج إطار القوانين المعمول بها في التعليم العتيق التابع لوزارة الأوقاف، كما أكد بلاغ وزارة أحمد التوفيق.

وهو بلاغ عار من الصحة والموضوعية، كما أكد محامون مختصون وحقوقيون وسياسيون؛ إضافة إلى الجمعية المعنية بالأمر التي أوضحت في بيان للرأي العام أن «هذا غير صحيح لأن الجمعية لا تخضع لقانون التعليم العتيق حتى تسوي وضعيتها بناء عليه».

وبالموازاة مع ذلك تدخل المركز المغربي لحقوق الإنسان CMDH وطالب حكومة عبد الإله بنكيران بالعدول عن قرار إغلاق دور القرآن التابعة لجمعية الدعوة إلى القرآن والسنة بمراكش، وباللجوء إلى القضاء في حالة حدوث خلاف بين السلطات والجمعية المذكورة، «وذلك مراعاة لروح الدستور المغربي، واحتراما لإرادة الشعب المغربي الذي صادق عليه»، وبفتح حوار مسؤول يقضي بإيجاد حل يحترم أنشطة الجمعية دون انتهاك حقها في تنفيذ أنشطتها.

واعتبر المركز الحقوقي في بيان له أن دور تحفيظ القرآن الكريم، التابعة لجمعية الدعوة إلى القرآن والسنة التي يرأسها الشيخ محمد المغراوي، تقوم بدورها في التحصيل الديني كبادرة من المجتمع المدني، تنسجم مع القيم المشتركة التي يتمتع بها المجتمع المغربي، ولا تخرج على هذا النطاق حتى

يجعلها موضع استهداف، معتبرا أن الواجب هو تشجيعها ومباركة دورها الطلائعي في الحفاظ على مكونات المجتمع، من خلال العناية بروابط التلاحم والتواد بين أبناء المغرب.

كما أعلن أكثر من ٤ مليون مغربي عن تعاطفهم التام وتضامنهم اللامشروط مع دور القرآن بالمغرب، حيث أعلنت مجموعة من صفحات التواصل الاجتماعي عن دعمها المطلق لقضية دور القرآن الكريم، وهي صفحات يتجاوز عددها ٤ مليون مغربي؛ وأكدوا أنه «لا يعقل في بلد إسلامي ٩٩٪ من سكانه دينهم الإسلام، وفي مغرب ساهم في نشر الإسلام ورسالته السمحاء منذ قرون أن تغلق دور قرآنه، ويمنع أئمة بعض مساجده من الدعوة والإرشاد بدعوى نشر الأفكار الظلامية وزرع الفتنة وفي المقابل ملاهي الرقص والفجور ودور الدعارة في تزايد وفي واضحة النهار».

وطالب رواد هذه الصفحات من الحكومة المغربية «التدخل لإيقاف القرار المجحف وغير المنطقي والذي لا يتوافق مع روح الدستور المغربي الذي صوت عليه أغلبية الشعب».

وقد جاء هذا القرار بالتزامن مع إعلان منظمة التجديد الطلابي فرع مراكش «تضامنها مع جمعية الدعوة إلى القرآن والسنة، وتنديدها بالردة التي يشهدها التحول الديمقراطي في المغرب ومحاولات القفز على المكتسبات الدستورية الجديدة».

إضافة إلى ذلك استنكرت فعاليات سياسية وجمعوية وحقوقية كثيرة هذا القرار الذي اعتبرته مجحفا ومخالفا لدستور يوليوز ٢٠١١.

وقد وصف وزير العدل والحريات الأستاذ مصطفى الرميد قرار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية باللامسؤول وبالـ«تضييق على الناس بغير وجه حق، ومس بحرياتهم بغير سبب معقول»، وقال: «فوجئت بقرار الإغلاق.. ولا يسعني إلا أن أعبر عن رفضي القاطع لصدوره».

وهو التصريح الذي أكد الاختلاف الكبير والتقاطب الحاد بين مكونات الحكومة بخصوص هذا القرار، فوزير الأوقاف يؤكد ويتهم جمعية الدعوة إلى القرآن والسنة بالتضليل، ووزير العدل يشجب القرار ويصفه بـ:غير المسؤول، ويعتبره تضييقا على الناس بغير وجه حق.. ما يعني عدم انسجام الحكومة المتعددة المشارب في قراراتها.

ودعونا نرجع قليلا إلى الوراء ونستحضر سبب الإغلاق الأول لأكثر من ٦٧ جمعية لتحفيظ القرآن الكريم، فقد كانت الشماعة التي علق عليها سبب الإغلاق هو ما سمي وقتها بـ«فتوى زواج الصغيرة»، فتحملت الجمعيات التي تعنى بتحفيظ القرآن الكريم شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، تبعات تفسير الدكتور محمد المغراوي لآية من كتاب الله تعالى مجمع على تفسيرها من طرف العلماء.

وظلت هذه الجمعيات مغلقة إلى حين هبوب الربيع العربي، ففتح بعضها بأمر ملكي، كما نقل رئيس الحكومة السيد عبد الإله بنكيران، واليوم يعاد إغلاقها من جديد بتزامن مع زيارة رئيس الحكومة ذي المرجعية الإسلامية نفسه إلى المدينة الحمراء، في ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية خانقة، ومعارضة شديدة للحكومة الحالية، وعزم حزب الاستقلال على الانسحاب منها.

ما يؤكد وجود إرادة قوية للوقيعة بين حزب العدالة والتنمية الذي يشكل الأغلبية في الحكومة والتيار السلفي الواسع الانتشار في مراكش وغيرها.

فمن هي الجهة التي تدفع في اتجاه التضييق على الجمعيات والمؤسسات ذات المرجعية الإسلامية؟

ومن يقف حجر عثرة أمام استمرار أنشطة دور القرآن الكريم الريادية والإصلاحية؟

هل تتصالح حماس مع الأسد؟

طارق حميد - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٧/٢٩

بسرعة، ومن دون تردد، شرعت حماس في إنجاز مصالحة مع إيران وحزب الله، وذلك إثر سقوط نظام الإخوان المسلمين في مصر، ورغم قول حماس سابقا إن علاقتها بإيران وحزب الله قد تأثرت بسبب موقف الحركة من الثورة السورية! وبالطبع لم تكن تبريرات حماس حول الموقف من الثورة السورية حقيقية بقدر ما أن حماس استشعرت حينها القوة بوصول الإخوان للحكم بمصر، وهو الأمر الذي لم يدم أكثر من عام واحد، وها هي حماس تعود من جديد لأحضان إيران وحزب الله، وبسرعة رغم أن القتل مستمر في سوريا، بل وتجاوز عدد القتلى السوريين على يد قوات الأسد المائة ألف قتيل، مما يثبت كذب حماس التي لا تتعاطف مع الثورة السورية بقدر ما أنها تبحث عن الاستمرار بحكم غزة، ولو على حساب القضية الفلسطينية نفسها، وليس الثورة السورية وحسب.

ولا شك أن عودة العلاقات بين حماس وإيران وحزب الله الآن هي أشبه بحلف المضطر، فحماس تريد الاستمرار بحكم غزة، وهي التي لم تقم بانتخابات هناك منذ انقلابها على السلطة الفلسطينية، وتريد أيضا من الارتماء بأحضان إيران ضمان المول والعودة لنفس الوضع أيام حكم مبارك، بحيث تصبح غزة الطعنة في خاصرة مصر. وبالنسبة للعلاقة مع حزب الله فإن حماس تريد ضمان بقاء مكتبها في بيروت، والذي هددت بالطرد منه بعد إعلان تعاطفها مع الثورة السورية، ويوم ما ظنت حماس أن القاهرة أصبحت الحديقة الخلفية لغزة! أما بالنسبة لإيران وحزب الله فإن التصالح مع حماس يخدم عدة قضايا منها تبييض وجه طهران وحزب الله من التهمة الطائفية بسوريا، وقطع الطريق على المفاوضات المزمع عقدها حول السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وكذلك الاستفادة من حماس في مناكفة مصر الجديدة، ومحاولة تصوير القاهرة في قادم الأيام كحليف لإسرائيل بعد سقوط الإخوان، الذين شكلوا تحالفا صامتا مع إسرائيل طوال عام من حكم مرسي لم يستطع حتى مبارك إنجازه.

وبالطبع ستعود النغمة البالية من مقاومة وممانعة، ولا يستبعد الآن فتح جبهة من غزة مع إسرائيل للهروب إلى الأمام وخدمة عدة أهداف إيرانية بالمنطقة، ومنها تخفيف الضغط عن الأسد، وتحريك المفاوضات الإيرانية الدولية، والضغط على مصر الجديدة، وكل ذلك مقابل أن تحظى حماس بالدعم المادي من قبل إيران، كما حدث بالعشرة أعوام الماضية، مما يستوجب التساؤل: هل تشرع حماس الآن بالصلح مع الأسد برعاية كل من إيران وحزب الله، وبحجة المقاومة والممانعة؟ وهل تحظى حماس الآن بدعم مالي من العراق أيضا كونها عادت إلى حضن إيران وعملائها بالمنطقة؟

كل شيء محتمل بالطبع طالما أن هم حماس هو البقاء، ولو على حساب القضية الفلسطينية، لكن هل ينطلي هذا الأمر مجددا على المنطقة مرة أخرى؟ أتمنى لا، خصوصا أن جميع الأوراق مكشوفة الآن، وعرف من هم تجار الدم والدمار من الإخوان المسلمين وأتباعهم مثل حماس، أو إيران وعملائها كحزب الله.

حروب "حزب الله" تؤكد هويته العسكرية

غسان الإمام - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٧/٣٠

سلّم الرئيس حافظ الأسد، على مضض، برغبة إيران في إنشاء حزب طائفي شيعي في لبنان خاص بها. وكعادته، أجرى مداولات سرية طويلة مع زعماء إيرانيين دينيين. ومدنيين. وعسكريين. ومخابراتيين، محاولا إقناعهم بقبول حركة «أمل» حزبا للطائفة تدعمه وتستغله سوريا وإيران معا.

لكن الإيرانيين اعتذروا بلباقة لحليفهم الوحيد في العالم العربي. وأرسلوا مئات من ميليشيا الحرس الثوري إلى بعلبك. وبدأوا فورا بتدريب شباب الشيعة على السلاح والقتال. وكانت مخابرات الخميني المنهمك، بحرب مضنية مع عراق صدام، قد حشدت مسبقا لفيفا طويلا عريضا، من رجال الدين، لتشكيل البنية المذهبية للحزب.

هكذا ولد «حزب اللّه». وجاء تصميم رمزه من إيران: قبضة مرفوعة ممسكة ببندقية كلاشنيكوف. ولم تكن تلك القبضة سوى للشباب من أصحاب العمائم الذين كانوا من صغار تلامذة الخميني في النجف، عندما كان هاربا من الشاه، إثر قمع ثورته الدينية الأولى (١٩٦٣). وبين هؤلاء صبحي الطفيلي الذي سيصبح أول أمين عام للحزب. وعباس الموسوي الأمين العام الثاني الذي اغتالته إسرائيل (١٩٩٢). وحسن نصر اللّه أمينه الثالث.

في حذره التقليدي، نصح الأسد حلفاءه الإيرانيين، بعدم الإعلان عن ميلاد الحزب (١٩٨٢). وبالفعل، تأجل الإعلان إلى عام ١٩٨٥، وذلك بعدما انهمك الحزب فور ميلاده (تحت اسم منظمة «الجهاد») بعمليات انتحارية، روّعت الأميركيين والفرنسيين الذين ارتكبوا خطأ إنزال قوات برية كبيرة في لبنان، مستغلّين انكفاء القوات الإسرائيلية الغازية إلى الجنوب، إثر تعرضها لعمليات استنزاف.

قتل ٢٤٠ جندي مارينز أميركيا. و٨٦ مظليا وجنديا فرنسيا، في عمليتين انتحاريتين بسيارات مفخخة اقتحمت قواعد هذه القوات في بيروت (١٩٨٣). وعندما نسف الحزب مبنى السفارة الأميركية بعملية ثالثة. قتل فيها دبلوماسيون ومدير محطة المخابرات المركزية في المنطقة، آثر الرئيسان رونالد ريغان وفرانسوا ميتران سحب قواتهما.

عدت إلى هذه الخلفية «الماضوية» لحزب اللّه، لأذكِّر الأوروبيين بأن معاقبتهم «للجناح العسكري» للحزب هي خرافة، كي لا أقول أكذوبة. فلا انفصال بين العسكري والديني، في قيادة الحزب منذ ولادته. وخرافة «الجناح العسكري» هي من فذلكة الدبلوماسية البريطانية، لتمرير العقوبة، بأهون أذى ممكن، قد يلحقه «حزب اللّه» بالقوات الأوروبية المشاركة في حفظ «السلام» بينه وبين إسرائيل في جنوب لبنان.

صحا الرئيس الأسد من غفوة مرضه ففرك كفيه فرحا. فقد وفَّرت عمليات «حزب اللّه» عليه وعلى تنظيمه الشيعي في لبنان (حركة أمل) لوم وغضب أميركا وأوروبا اللذين انصبّا على إيران. ومن الباب المُوارِب، لعب الأسد دورين في حرب الرهائن المخابراتية التي ستنشب طيلة الثمانينات: دور المشاركة. أو الوساطة. وقد سجلت المخابرات الإيرانية بواسطة حزبها «الإلهي» نصرا كبيرا على المخابرات الغربية.

أستطيع أن أقول إن لبنان خرج عمليا من دائرة النفوذ الغربي، منذ تأسيس الحزب (١٩٨٢). وبات على نظامه مداراة إيران وحزبها، وخاصة أن عرب المشرق، بما فيهم اللبنانيون، باتوا متأثرين بثقافة «المقاومة» والعداء للسياسات الغربية التي بثها النظامان الإيراني والسوري.

وأروي هنا بعض التفاصيل عن حرب الرهائن. فقد كان بين ضحاياها مالكوم كير رئيس جامعة بيروت الأميركية (٨٤). والباحث الفرنسي ميشال سورا (٨٦). والعقيد الأميركي الأسود ريتشارد هيجينز العامل في القوات الدولية. أعدم سورا المتزوج سوريةً، لمجرد وضعه كتابا عن الطائفة العلوية. وشنق حزب اللّه العقيد الأميركي، بعد خطف إسرائيل، في عملية جريئة، قياديين حزبيين (عبد الكريم عبيد ومصطفى ديراني).

وأضيف أن الأسد لم يكن راضيا عن قتل الضابط الأميركي. وحاول إنقاذه هو والقس الإنجيلي البريطاني ثيري ويت الذي أبقاه خاطفوه عاريا بعدما اكتشفوا أن طيات جسده تحتوي على

أجهزة اتصال واستقبال دقيقة. ثم أرسل الأسد قوة لطرد طلاب «حزب الله» المعتصمين في الجامعة الأميركية.

سلمت إدارتا ريغان ثم جورج بوش الأول بدور الأسد كشرطي لبنان، في التسعينات. ولم تعترض على تصفية واغتيال زعماء سنة كبار (المفتي حسن خالد والشيخ صبحي الصالح) ورئيسين مارونيين (بشير الجميل ورينيه معوض) في الثمانينات. وبلغ النفوذ السوري قوته وأوجه في التسعينات. عادت القوات السورية من البقاع إلى بيروت. وأنقذت قوات «أمل» من الهزيمة أمام الميليشيا الدرزية. ودخلت ضاحية بيروت الجنوبية (عاصمة دويلة حزب الله) هي والجيش اللبناني. وتم تأديب الحزب في معارك طاحنة، وخاصة بعد اغتيال الشيخ نزار الحلبي الزعيم الروحي لتنظيم «الأحباش» الديني السنّي.

بل كانت جرأة الأسد كبيرة عندما منع إيران بالقوة من السيطرة على مدينة طرابلس، عبر تبنيها لإمارة «التوحيد» الدينية التي أقامها الشيخ «الجهادي» السني سعيد شعبان. وأروي هنا أن أنصار الشيخ غافلوه. فقنصوا. وقتلوا ١٥ جنديا سوريا. فأطبقت القوات السورية على منطقة التبانة في شمال المدينة. وكانت المجزرة شبيهة بمجازر النظام في سوريا حاليا. ولم يسلم من القتل المدنيون المحاصرون. ولم تجرؤ الصحف على نشر أية تفاصيل. ومات الشيخ شعبان كمدا بعد أعوام قليلة.

كان رهان إيران على «حزب الله» ناجحا. فقد ملأ لصالح إيران الفراغ السياسي والديني الذي خلّفه انسحاب الفلسطينيين من لبنان بعد الغزو الإسرائيلي. وإذا كانت حرب الرهائن نصرا لإيران وحزبها، فقد كانت أيضا مظلة واقية لحرب الأسد على عرفات (حرب المخيمات) في الثمانينات التي قتل فيها ألفا فلسطيني. وجرح أربعة آلاف. وجرت الحرب بالواسطة. فقد استخدم الأسد منظمة «أمل» الحليفة الأولى. وربما لم يعرف زعيمها نبيه بري أن قادة دباباتها السورية (تي - ٥٥) كانوا من الجنود العلويين.

غير أن حربا أخرى سببت متاعب كبيرة للرئيس الأسد. فلم يكن قادرا على إرسال قواته عبر «الخط الأحمر» الإسرائيلي، لوقف الحرب الشيعية / الشيعية في الجنوب، بين حركة «أمل» الحليفة له، و«حزب الله». جرت تلك الحرب الشقية على مراحل. فقتل وجرح ألوف المدنيين الشيعة. ولم تجرؤ الصحف أيضا على ذكر أية تفاصيل. وكان الجانبان ينقضان الاتفاقات الموقعة. وأخيرا، كان بالإمكان وقفها (١٩٨٩) بعد أربع سنوات من نشوبها.

ولا تخلو مأساة الحروب اللبنانية من طرافة التناقضات! فقد تحالفت قوات «فتح» مع قوات «أمل»، بعد اقتتالهما في حرب المخيمات، وذلك في معارك إقليم التفاح الجنوبي بين «أمل» و«حزب الله». فلم يكن الفلسطينيون راغبين في سيطرة الحزب على الجنوب، ويعتبرون التعامل مع «أمل» أكثر سهولة ومرونة. غير أن الحزب أنهى حرب الأشقاء بالسيطرة تماما على الجنوب، لكن سُمح لـ«أمل» بدخول ضاحية بيروت الجنوبية التي يعتبرها عاصمة لدويلته.

تسارع أوروبا لتقديم الاعتذار تلو الاعتذار لـ«حزب الله» على إدراج «جناحه» العسكري (الذي لا ينفصل عن جناحه السياسي) في لائحة الإرهاب. الحزب يعرف أن تورطه في الحرب السورية بات شديد الوطأة على سمعته وعلاقاته الدولية.

في الثلاثاء المقبل، أواصل مع أوروبا رحلة التنقيب والبحث عن الجناح العسكري للحزب. وأقف عند شخصية حسن نصر الله. كيف أزاح حسن نصر الله من طريقه منافسه الشيخ صبحي الطفيلي؟ وكيف حيّد عمامة الراحل من حسين فضل الله؟ وهل كان فضل الله زعيما روحيا فقط للحزب؟ أم تقمصته روح الجناح العسكري المفقود؟

مبارزة بالفصحى بين الحريري ونصر الله

غسان الأمام - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٨/٦

«إننا نقول لهذه الأحزاب التي نعتقد بكفرها، إن الساعة التي تختارونها، لتكون ساعة وجودكم، ستكون ساعة دفنكم. ودفعكم إلى المقابر...». هذا الكلام ليس لأسامة بن لادن. أو لنائبه أيمن الظواهري... هذا الكلام الخطير لحسن نصر الله قبل أن يصبح أمينا عاما لحزب الله (١٩٩٢)، مخاطبا الأحزاب السياسية اللبنانية.

حسن نصر الله من جيل جديد من رجال الدين المتسيسين، عند السنة والشيعة. جيل نَبَتَ غالبه في الفقر المدقع. ووجد في الإسلام «الجهادي والتكفيري» رسالته التي يوجهها إلى العالم!

ما أحلى لبنان! هناك دولتان. جمهورية الطوائف. ودولة الطائفة. طوائف تحلم بالديمقراطية والأمن والسلم. ودولة الطائفة تحلم بفرض عنف الدولة الدينية على بلد فيه ١٧ دينا. وطائفة. ومذهبا!. مَلّ حسن نصر الله الفقر. فلاذ بالدين. سافر من «الكرنتينا» أفقر أحياء بيروت، إلى حلقات الدراسة حول الأضرحة المقدسة في الطرق. تتلمذ على الخميني وبطانته. تعلم كيف يجعل من الدين لها طائفيا يحرق ويحترق.

تصالح صدام مع الشاه. فطارد الخميني اللاجئ إلى النجف وكربلاء. عاد حسن نصر الله مع زميليه صبحي الطفيلي. وعباس الموسوي إلى بيت الطائفة في لبنان. استجابوا لنداء «الفقيه» الذي أقام دولة دينية في إيران. فأسسوا حزبا له في لبنان، بعد انسحابهم من تنظيم «أمل» الطائفي الذي أسسه موسى الصدر. ثم سيطر عليه المحامي والبعثي السابق نبيه بري، بدعم من الأسد الأب والابن.

حسن نصر الله تميز عن رفاقه بالمواهب: كفاءة في الإدارة. تكتم في الحركة. انضباط في التنظيم. يعمل أكثر مما ينام. يختفي. يختبئ أكثر مما يطفو. ويظهر. يأكل بقدر ما يتكلم. يتضخم. فبات يملأ الشاشة بالسواد، وكأنه من شبيحة بشار الذين يَتّشِحُون بالأسود.

أحيا نصر الله فن الخطابة الذي اندثر، كسلاح سياسي، منذ غياب الخطيب المُفَوّه الشيخ بشارة الخوري أول رئيس للبنان الاستقلال. خلافا للصدر ومحمد حسين فضل الله اللذين خالطت عربيتهما لكنة عراقية فارسية، يخطب نصر الله بالعربية الفصحى متميزا على سائر الساسة اللبنانيين المعاصرين. ويمزجها فجأة بالعامية اللبنانية. فيُلهب خطابه الشعبوي عواطف القطعان البشرية الماثلة أمامه.

هؤلاء البسطاء الطيبون من أبناء الطائفة تفوت عليهم تناقضات «السيد». يهمس في آذانهم: حرب ٢٠٠٦ مع إسرائيل نصر إلهي. فيرفعون أيديهم له بالدعاء. والشكر للسماء. يعود متناقضا: «لو علمت أن عملية الأسرى (الحرب مع إسرائيل) كانت ستؤدي إلى هذه النتيجة لما قمنا بها قطعا». فيتذكر السامعون ١٢٠٠ شيعي قتلوا في الحرب المذكورة. يتهامسون: «ليته فعل». ثم يتذكرون قتلاهم في حرب «حزب الله» وأمل. يتنهدون. لا صوت يَندُّ عنهم. فالصمت سياسة منذ تأسيس الحزب، قبل ثلاثين سنة، فيما تتمتع الطوائف الأخرى بحرية تامة في التعبير والتفكير.

لا أميل إلى الحديث في فقه المذاهب. فهو مثير للشقاق في بلد كلبنان. أو سوريا. أكتفي بالقول إن الدهاء وفن المناورة عند «السيد» حسن ضَمِنَا له الإطاحة بزميله الأكثر تزمتا صبحي الطفيلي الذي أصبح أول أمين عام للحزب (١٩٨٩).

بل تمكن «السيد» من إقصاء العلامة محمد حسين فضل الله الذي كان صديقا مُقَرّبا من نائب الفقيه الأسبق حسين علي منتظري الذي أقصاه الخميني وعزله. وأجلس نصيره علي خامنئي

(كانت رتبته «مجتهد») محله. ولفضل الله قصة تستحق أن تروى يوما ما. ألخصها هنا بالقول إنه ولد في النجف. ودرس هناك. وعاد إلى لبنان. وكان مسايرا لمنتظري في عدم تسييس الدين ورجاله. ومع أن فضل الله محسوب على الجيل الجديد من رجال الدين، فقد كان متواضعا حلو المعشر.

لعل فضل الله (يحمل رتبة «آية الله») كان راغبا في تولي زعامة حزب الله. وتعرض بسبب ذلك إلى «غارة» أميركية قتلت ثمانين من أنصاره وجرحت مائتين آخرين. واعترف الأميركيون (مصادر إدارة ريغان) بأن الـCIA عهدت إلى المخابرات العسكرية اللبنانية في ثمانينات الحرب الأهلية بـ«تصريف» فضل الله «المهيمن» في ظنها على الحزب.

لكن العناصر «الفالتة» في الفوضى المخابراتية اللبنانية آنذاك ضاعفت من كمية المتفجرات. نجا فضل الله. فابتعد «روحيا» عن الحزب. وتركه لحسن نصر الله «رجل قم وطهران» المؤمن المدافع عن ولاية الفقيه، في ذروة صدام الراحل فضل الله مع «آيات» إيران.

قلت في الثلاثاء الماضي إن التسعينات شهدت ذروة الهيمنة السورية على لبنان. فقد أجبر الأسد الأب «حزب الله» على إنهاء حرب الرهائن، وإطلاق سراح كل ما لديه من الرهائن الأميركية والغربية. وعندما رفض الحزب التخلي عن سلاحه، أسوة بسائر الميليشيات، وتم اغتيال نزال الحلبي زعيم «تنظيم الأحباش» القريب من النظام السوري، قتلت القوات السورية ٢٣ من «حزب الله». وهُرعت إيران للتوسط له في دمشق. وبالفعل، احتفظ بسلاحه.

نعم، كسب الحزب شعبية في الشارع العربي مع نجاح مقاومته لإسرائيل التي سحبت قواتها من لبنان (٢٠٠٠). لكن إجبار مجلس الأمن الأسد الابن على الانسحاب من لبنان (٢٠٠٥) أطلق يد إيران في استخدام الحزب، بشكل سيئ. فأسقط حكومتي فؤاد السنيورة وسعد الحريري، ليهيمن على حكومة نجيب ميقاتي. وها هو اليوم يعرقل مع حلفائه وحلفاء بشار تشكيل حكومة جديدة برئاسة المكلف تمام سلام.

توريط إيران الحزب في الحرب السورية إلى جانب بشار، أفقده شعبيته العربية. وكشف تماما أمام العرب والعالم، كأداة إيرانية. وصعد بالتوتر في لبنان مع السنة المتعاطفين مع السوريين. بل مع الرئيس ميشال سليمان. وهو أول رئيس لبناني يقدم نفسه رئيسا للبنان. وليس لطائفة. صارح سليمان الحزب بأن «مقاومته» باتت عبئا على سيادة لبنان ومصلحته. وعندما دعاه إلى الخروج من سوريا، خرج «السيد» من مخبئه، ليعيد حكاية المقاومة التي تريد تحرير فلسطين.

حكا السيد فبدا ضعيفا في منطقه. فمقاومته مشغولة بحربها في سوريا. وليس في الجولان أو فلسطين. وتصاعد التوتر إلى حد القصف المحمول لقواعد الجيش اللبناني والقصر الجمهوري بالصواريخ. أزمة الحزب مع الدولة دفعت الرئيس اللبناني فورا إلى الذهاب إلى طهران، شاكيا الحزب هناك. الزيارة الخاطفة تعتبر اختبارا للرئيس الجديد حسن روحاني، وما إذا كان قادرا على ممارسة سياسة «التهدئة» مع العرب.

المفاجأة الحقيقية لحزب الله كانت موقف تيار «المستقبل». فقد تضامن رئيسه سعد الحريري بحزم مع موقف رئيس الجمهورية، في خطاب جامع. قوي. وواضح: السنة مع الدولة. مع الجيش حتى ولو أخطأ الجيش مع السنة. وتحدى الحريري «حزب الله» داعيا إياه إلى الجلوس إلى مائدة الحوار الوطني الذي دعا إليه الرئيس سليمان.

في الحديث عن لبنان، سبق لي أن قلت مرارا إن السنة لم تتورط في الحرب الأهلية في لبنان. لأنها لا تملك سوى الرهان على الدولة. والديمقراطية. وكم كنت أتمنى لو أن الرئيس سليمان، في نقده الحازم لحزب الله (من دون أن يسميه) ركز دفاعه عن ديمقراطية لبنان. وكرامة نظامه وسيادته، بدلا من الدفاع الطويل عن الجيش.

أما المفاجأة الكبيرة لي، كمستمع ومشاهد، فهي سعد الحريري نفسه. فقد أحرج «حزب الله» بإعلان استعداد تيار «المستقبل» عدم المشاركة في الحكومة الجديدة، إذا فرضت الظروف الصعبة الأخذ برأي الرئيس سليمان بضرورة تشكيل حكومة حيادية تعتمد الكفاءة ولا يشارك فيها الساسة.

ألقى هذا الشاب الجديد نسبيا على السياسة خطابا مكتوبا بالفصحى. وبنبرة واضحة. وصوت صريح. عالٍ. كم أتمنى على العماد ميشال عون أن يجالس حليفه حسن نصر الله. لعله يتعلم النطق بالفصحى. فلا تتكسر عاميته. كان لبنان وطن الفصاحة. وأولهم فيها آباء ورهبان مسيحيون وموارنة.

التخوف الإيراني من حل القضية الكردية

صباح الموسوي - المصريون ٢٠١٣/٧/٢٢

منذ أن توصلت تركيا إلى اتفاق مع حزب العمال الكردستاني يدعو إلى وقف الأعمال المسلحة من قبل الأكراد وانسحابهم إلى داخل أراضي كردستان العراق، وانتخابهم قيادة جديدة تواكب المستجدات المنبثقة عن الاتفاق مع الحكومة التركية، منذ ذلك الحين والنظام الإيراني يعيش حالة تخوف من انعكاسات الاتفاق التركي - الكردي على حالة الأكراد في إقليم كردستان الإيراني.

وما زاد في التخوف الإيراني هو «إعلان أكراد سوريا عزمهم إجراء انتخابات لإدارة المناطق الواقعة تحت سيطرتهم (تحت عنوان الإدارة الذاتية). وهذا بطبيعة الحال جرى ومازال يجري بتنسيق ومباركة من حكومة إقليم كردستان العراق بقيادة زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني ورئيس الإقليم السيد مسعود بارزاني الذي يرتبط بصداقة وثيقة مع تركيا على العكس من منافسه رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني جلال الطالباني الذي تربطه علاقات متينة مع إيران، ويرتبط بتحالف استراتيجي مع الجماعات والأحزاب الشيعية العراقية الموالية لإيران.

إن ما تم بين الحكومة التركية وحزب العمال الكردستاني من اتفاق يحقق مكاسب حقيقية للأكراد مستقبلًا، وما يسعى له أكراد سورية من مكاسب في ظل غياب الحكومة المركزية، إلى جانب تزايد قوة حكومة إقليم كردستان العراق على الصعيد الإقليمي والدولي، جعل النظام الإيراني يفكر مليًا بانعكاسات هذه التطورات على وضع أكراد إيران الذين منذ قرابة القرن وهم يخوضون نضالًا شرسًا لانتزاع اعتراف رسمي من حكومة طهران المركزية بحقوقها القومية التي قدموا من أجلها تضحيات جسيمة في عهد نظام الشاه وعهد الجمهورية الخمينية. وكان أكراد إيران قد أقاموا أول جمهورية كردية عرفت باسم «جمهورية مهاباد» ولكن تلك التجربة لم يكتب لها النجاح حيث لم تعمر أكثر من سنة واحدة ثم تم إسقاطها بعد انسحاب الاتحاد السوفيتي من شمال وشمال غرب إيران عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، وذلك ضمن اتفاق أمريكي – بريطاني - سوفيتي. ومنذ ذلك الحين والأكراد الإيرانيون يناضلون للحصول على حقوقهم الإنسانية والقومية والمذهبية، تعرضوا خلالها إلى حملات قمع وإبادة شديدة كانت أشدها خلال الأعوام الأولى من عمر الجمهورية الخمينية حيث تم قصف المنتفضين الأكراد بقنابل النابالم المحرمة دوليًا وشهدت مدن وقرى كردية عديدة حملات إعدامات جماعية ذهب ضحيتها الآلاف من الأكراد. كما تعرض العديد من القادة السياسيين والدينيين الأكراد في داخل إيران وخارجها إلى اغتيالات وتصفيات جسدية على يد جهاز المخابرات الإيرانية، كان من أبرزهم الزعيم الكردي البارز عبد الرحمن قاسملو وخليفته في

زعامة الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني، فاضل شرفكندي. كما جرى إعدام كل من الشيخ ناصر سبحاني، مؤسس جمعية الدعوة والإصلاح، والشيخ أحمد مفتي زاده والشيخ أحمد الربيعي من أبرز علماء الدين، بالإضافة إلى عشرات المثقفين والقادة الدينيين والسياسيين، ناهيك عن آلاف الأكراد الذين تم إعدامها في السجون أو أثناء مطاردتهم في الجبال أو جراء قصف القرى والقصبات الكردية. ورغم كل ما جرى لهم فقد بقي أكراد إيران مصرين على نيل حقوقهم، وقد زاد إصرارهم على مواصلة مطالبهم عقب تغيّر أوضاع أشقائهم الأكراد في العراق، وقد أصبحت آمالهم أكبر وإصرارهم يزداد أكثر بعد الانفتاح الذي حصل من قبل الحكومة التركية على مواطنيها الأكراد وبعد أن أنجز أكراد سوريا حلم الإدارة الذاتية لمناطقهم. وهذا ما يجعل النظام الإيراني يعيش هاجس الرعب من احتمال قرب تغير الوضع في إقليم كردستان إيران وهو إذا ما حصل فإنه سوف لن يقف عند حدود الأكراد بل من المؤكد أن هذه العدوة سوف تنتقل إلى أقاليم ومناطق الشعوب والقوميات غير الفارسية كافة، وعلى رأسها إقليم الأحواز العربي منبع الثروة الإيرانية، وعندها سوف يعيد التاريخ نفسه ليحل بجمهورية إيران الخمينية ما حل بإمبراطورية كسرى المجوسية.

هل الهدف إبعاد أردوغان أم إزاحة تركيا؟

سمير صالحة - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٧/٢٦

من يريد التعرف إلى آخر المستجدات في مسألة ميدان «تقسيم» يحاول أن يرصد ما يقوله يوميا رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، لكن التفاصيل المثيرة التي تستحق التحليل والنقاش حول خلفيات الأحداث والأصابع التي تحاول تحريك الدمى يتحدث عنها رئيس بلدية أنقرة مليح غوكشاك. رئيس بلدية أنقرة يتحرك على طريقته منذ بداية الأزمة مزودا بالأرقام والصور والأدلة الكثيرة التي يقدمها حول الجهة الفاعلة وأهدافها.

الأزمة كما يبدو أبعد من أن تكون مسألة متنزه وأشجاره، وأعمق من أن تكون قضية التحجج باستهداف المكون العلماني في شريحة المجتمع التركي أو «انكسار شيء ما بين أردوغان والأتراك» و«قمع «أردوغان لشعبه في (جيزي بارك)»، أو تعطيل الحريات في ارتياد النوادي الليلية وتحذير أردوغان من أن الجيش سيتحرك، وأنه هو الذي يتحمل مسؤولية دفع الشعب التركي للانقسام، وأن مصير «العدالة» لن يختلف عن مصير «الرفاه»، كما نقرأ في تحليلات الكثير من الصحف العربية والغربية.

غوكشاك، السياسي المخضرم الذي يترأس بلديه العاصمة التركية للمرة الثالثة على التوالي، جيش على ما يبدو فريق عمل كبيرا، وبخبرات متنوعة، يعمل على مدار الساعة لمتابعة كل شاردة وواردة تتعلق بالأحداث وتفاصيلها داخل تركيا وخارجها.

غوكشاك حمل المسؤولية للبارونات وأصحاب رؤوس الأموال الذين اتهمهم بالجلوس والتنسيق من مركز عالمي واحد للتحريض والاستفزاز وإدارة اللعبة في تركيا. هي خطة لها علاقة مثلا بقطع الطريق على تركيا في تحركها لأخذ مكانها بين أهم مرشحي تنظيم أولمبياد عام ٢٠٢٠ أم محاولة ضغط وابتزاز للضغط على أردوغان وحكومته من أجل تقاسم موازنة ومشاريع هذا الإنجاز التي تقدر بعشرات مليارات الدولار من قبل الشركات العالمية؟

المحاولة الأولى التي جرى قطع الطريق عليها، كانت ارتكاب مجزرة في الأول من مايو (أيار) الماضي، وفي ميدان «تقسيم» نفسه، خلال احتفالات عيد العمال، لكن السلطات الأمنية والحكومة أفشلتها بغلق أبواب الميدان ومنع الدخول إليه. ثم أعد سيناريو الأول من يونيو (حزيران) الحالي الذي يقوم على مهاجمة منزل ومكتب أردوغان في إسطنبول واحتلالهما بالقوة، في محاولة لإعلان سقوط السلطة

السياسية، لكن أجهزة الأمن اكتشفت المخطط وأحبطته قبل ساعات من تنفيذه. ومع ذلك، فإن غوكشاك طالب الجميع بأن يستعدوا لكل المفاجآت والاحتمالات، فمن يريدون استهداف تركيا وأمنها واستقرارها أقوياء أيضا ولا يجوز الاستخفاف بما يملكونه من طاقات وقدرات. هو يرى أنهم لن يترددوا في اللجوء إلى عمليات التفجير والاغتيالات السياسية وإشعال الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية في البلاد كما فعلوا أكثر من مرة. غوكشاك يصر على أن المواجهة ستكون شاقة وطويلة، وأن الصيف قد يكون لاهبا في المدن التركية، فالهدف هو «العدالة والتنمية» ورجب طيب أردوغان وتركيا في الوقت نفسه. أردوغان أزعج البارونات العالمية وأغضبها عندما تجاوز الحدود المرسومة له وبدأ يلعب في ساحات كبار الشركات متعددة الجنسيات وأصحاب رؤوس الأموال والمصارف ومراكز القرار في البورصات العالمية، هو بالغ في الانفتاح على العالمين العربي والإسلامي على حساب الغرب وأوروبا ومصالحهما هناك.

أردوغان الذي يقاوم على طريقته يحاول القفز إلى الأمام لقطع الطريق على المؤامرة:

هو تحرك سريعا باتجاه الشارع كما فعل الطرف الآخر أيضا، وقصد ميادين المدن الكبرى وانطلق يخاطب جماهيره وقواعده ويقاسمها الكثير مما يعرف، ٥ مهرجانات حاشدة خلال أسبوع، قال إنها بداية مبكرة للحملة الانتخابية التي قد يقرب موعدها عند الضرورة.

هو أمر بالإسراع في تحقيق إنجازات حقيقية في مسار الملف الكردي، ودعا هيئة الحكماء لتقديم تقاريرها المفصلة والشاملة بأسرع ما يمكن لتضع الحكومة خطة التحرك وخارطة الطريق التي يطالبها بها قيادات حزب «السلام والديمقراطية» الكردي وعبد الله أوجلان.

وهو فاجأ الكثيرين بإنزال ملف العلويين في تركيا الذي ينتظر منذ عقود فوق الرفوف وأصدر أوامره بإنجاز مشروع سياسي اجتماعي يحقق للملايين من علويي تركيا الاعتراف بهويتهم الدينية والفكرية والاجتماعية. الهدف هذه المرة، هو حل مشاكلهم تحت سقف مؤسسة الشؤون الدينية التركية عبر منح المئات من رجال الدين العلويين الصفة الرسمية ورواتب وموازنات لإنفاقها على دور عبادتهم التي توصف بالمراكز الثقافية حتى اليوم.

أردوغان يردد دون لف ودوران أن ما يجري في تركيا له علاقة مباشرة بشق «العدالة والتنمية» وإضعافه وإخراجه من ساحة اللعب كما حدث مع حزب «الطريق الصحيح» وتانسو تشيللر، ثم مع «الحزب الديمقراطي اليساري» وأجويد، وأخيرا مع «الوطن الأم» ومسعود يلمز. كل هذه المشاريع استهدفت تحييد تركيا وإبقاءها خارج ساحة اللعب. أردوغان يقول إنه لم يعد بمقدورهم الرهان على انقلاب عسكري كما فعلوا أكثر من مرة، وأن الصناديق هي الحكم، وأنه لن ينسحب حتى ولو كان الثمن لا يقل قيمة عن ما دفعه تورغوت أوزال عام ١٩٩٣ أو ما لحق ببولنت أجويد عام ٢٠٠١. آخر ما استوقف رئيس الحكومة التركية كان الصدفة التي جمعت تركيا والبرازيل اللتين سددتا ديون البنك الدولي ونجحتا في تجربة التحرر التجاري والاقتصادي والمالي، والصدفة الأخرى التي فجرت الأحداث في هذين البلدين في الوقت نفسه، قد يكون السبب هو رفضهما الانصياع ومغادرة بيت الطاعة.

من قرع باب تركيا في الصومال؟

سمير صالحة - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٨/٦

الهجوم الأخير الذي استهدف السفارة التركية في العاصمة الصومالية مقديشو لو حقق غايته لكانت الخسائر والأضرار أكبر من ذلك بكثير.

يقظة حرس المبنى وقتل بعض المهاجمين قبل تفجير

عبواتهم حال دون مخطط إيقاع أكبر عدد من الأتراك بين دبلوماسيين ورجال أمن.

بيان حركة «الشباب الصومالي» المنظمة التي تعتبر امتدادا لـ«القاعدة»، الذي أعلن مسؤوليته عن الهجوم، رد السبب إلى «سياسة تركيا المتعاونة مع القيادة الصومالية التي تمنع تطبيق الشريعة في البلاد»، ونحن كدنا نقبل بهذا السيناريو الذي يعتبر منطقيا ما دامت تركيا، خصوصا في الأعوام الخمسة الأخيرة، وسعت من حركة تنقلاتها وزادت من مشاريعها الإعمارية والإنمائية والإنسانية التي وصلت إلى أبعد المناطق الصومالية، مما جعل من السفارة التركية أنشط البعثات التي تتحرك على مدار الساعة كما قال وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو، ومما يتسبب في قطع الطريق على هذه المنظمات في إيجاد المناصرين والداعمين.

كدنا أن نقتنع أيضا أن الهجوم ثمن تدفعه تركيا مثل الكثير من الدول التي توجهت إلى الصومال لتوفير السلم بين الجماعات المتقاتلة وإنهاء الحرب الأهلية الطويلة، لكنها تركت البلاد وسط حالة من الفراغ السياسي والأمني بعدما بدأت التناحر في ما بينها على اقتسام قطعة الجبن الأفريقية بغطاء دولي وأممي وتدخل مباشر للمنظمات الإقليمية والدولية ووجود عسكري وأمني هناك.

لكن اتهامات أنقرة المباشرة في أعقاب الهجوم لقوى دولية «أغاظها» النشاط التركي القوي في الصومال الذي قلب الحسابات والمعادلات التقليدية المعروفة في القرن الأفريقي، حول الأنظار نحو سيناريو آخر له علاقة مباشرة بوجود لاعبين إقليميين جدد في هذه المنطقة الموصوفة بالبقعة الخلفية لمشروع الشرق الأوسط الكبير وامتلاكها لأهم الممرات المائية الاستراتيجية في العالم وربما ما زاد من قيمتها وأهميتها هو الاكتشافات النفطية والعثور على المعادن الثمينة هناك. تصريحات داود أوغلو حول دور بعض القوى المنزعجة من التحرك التركي في الصومال في تنفيذ الهجوم قادنا إلى قناعة جديدة حول الاعتداء وأسبابه، ودفعنا لتوسيع رقعة الاحتمالات واعتبار الهجوم على أنه حلقة في تصفية الحسابات مع تركيا التي تسببت في تراجع نفوذهم وهددت مصالحهم في منطقة صالوا وجالوا فيها لعقود طويلة.

تحليلات سياسية وأمنية مثيرة في الداخل التركي أعادتنا إلى خط البداية من جديد حول الجهة الفاعلة ومصلحتها في تنفيذ هذا الهجوم. قيل لنا هذه المرة إن قوى الداخل والخارج المتآمرة ضد حكومة رجب طيب أردوغان التي تريد إبعاد الإسلاميين عن الحكم في إطار مخطط شمولي هي التي أعدت ومولت الهجوم وكلفت الشباب بتنفيذه لصالحها. إيقاف البحرية اليونانية قبل أيام لقارب مطاطي يحاول نقل أسلحة ومتفجرات إلى تركيا، وما ذكر حول اعترافات بالإعداد لحملة اغتيالات لشخصيات سياسية ورسمية كبيرة يعزز مقولة تحرك هذه القوى في داخل تركيا وخارجها واحتمال وقوفها وراء مخطط مقديشو.

لكن الاحتمال الأقوى يظل طبعا هو أن تركيا تدفع ثمن تغيير سياستها ومواقفها حيال منظمات ومجموعات متطرفة حصلت على خدمات وتسهيلات، والتغاضي عن تحركاتها في مناطق الحدود التركية السورية وورطت أنقرة في أكثر من مواجهة سياسية ودبلوماسية مع الشركاء والحلفاء قبل غيرهم. وإن هذه القوى أرادت بدورها تحذير حكومة أردوغان من خطورة وارتدادات أية محاولة لقطع الطريق الأهم على إمداداتها وتنقلاتها أو محاولة بناء تحالفات جديدة في سوريا تكون على حسابها. رسالة مقديشو ذكرت الأتراك بهجمات ما قبل ١٠ سنوات في العمق التجاري والسياحي لمدينة إسطنبول التي نفذتها «القاعدة»، وبأن أنقرة لا يمكن لها أن تثق أو تلعب ورقة هذه المجموعات التي ترفض مراقصة أحد إلا إذا كانت هي من يقول الكلمة الأخيرة حول الشروط والخيارات، وأن استقبال صالح مسلم الأمين العام لحزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني عدوها الأول اليوم في المدن

السورية لن يمر بمثل هذه البساطة، وحتى لو كلفها ذلك نقل جبهات القتال من الاحتراب مع النظام السوري إلى محاولة الإطاحة بأكراد سوريا وفي قلب مناطق نفوذهم وانتشارهم الكثيف، خصوصا أنها كانت تستعد لإعلان الإمارات وتسمية الأمراء.

العلمانية المستبدة في ندوة الكنيسة الإنجيلية حول الدستور!

عبد المنعم الشحات - الإسلاميون ٢٠١٣/٨/٣

فقد تداول نشطاء مقطع فيديو ظهر فيه مجموعة من الأشخاص «ممن يحلو لهم أن يصفوا أنفسهم بالنخبة!» يتناقشون فيه حول الدستور مناقشاتٍ أظهروا فيها كثيرًا من عدائهم لفكرة الهوية الإسلامية.

وكان هذا المقطع مسجلاً من نقل لقناة «أون.تي.في» لوقائع تلك الجلسة؛ والتي بدت غامضة حتى خرج علينا القس «أندريا زكي» نائب رئيس الطائفة الإنجيلية بتصريحات بيّن فيها أن هذا المقطع كان جزءًا من ندوة أقامتها الكنيسة الإنجيلية لمناقشة تعديلات الدستور، وحرص القس «أندريا» على التأكيد على أن مكان انعقاد الندوة كان في فندق «وليس الكنيسة»، وأن معظم الحاضرين طالبوا باعتبار «المادة الثانية» خطًا أحمر، وأن البعض تداول فقط العشر دقائق التي صرّح فيها الكاتب «حلمي النمنم» بأن مصر يجب أن تكون علمانية، وأن الشعب المصري علماني بطبعه!

ومن هذا التصريح عرفنا قصة الحوار الذي زعم القس «أندريا» أنه كان ندوة علمية علنية في حين أن مدير الندوة «وأظنه من واقع الصورة هو القس أندريا ذاته» قد بدا عليه الانزعاج البالغ حينما جاءته ورقة تخبره بأن اللقاء مذاع على الهواء، وكان هذا تحديدًا بعد كلمة كل من المستشارة «تهاني الجبالي» والأستاذ «حلمي النمنم»، وهو الجزء الذي تم تداوله على الإنترنت بطبيعة الحال، وكان ملخص هذه الكلمات هي:

أولاً: كلمة المستشارة «تهاني الجبالي»:

١- في يوم «٣- ٧- ٢٠١٣م» كان الاتفاق هو إلغاء الدستور والعودة إلى دستور ١٩٧١م.

٢- د.«البرادعي» الذي ذهب ممثلاً لجبهة الإنقاذ خضع لضغوط حزب النور.

٣- د.«البرادعي» ليس ممثلاً للشعب المصري.

٤- النخبة السياسية هي سبب فشل ثورة يناير أصلاً.

ثانيًا: كلمة الأستاذ «حلمي النمنم»:

١- آن الأوان لوضع دستور علماني!

٢- كلمة «الشعب متدين بطبعة» غير صحيحة، والصحيح - عنده- أن «الشعب المصري علماني بطبعه!».

٣- آن الأوان للتخلص من الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية.

٤- أن الديمقراطية لا يمكن تطبيقها إلا بالدم.

٥- سب وشتم في حزب النور بعبارات، كان منها:

أ- «يغوروا في ستين داهية».

ب- تشبيههم بالمرأة الذي إذا رفض زوجها طلبًا لها ذهبت إلى غيره.

وقد اختلفتْ ردود الأفعال حول هذا الفيديو؛ فكان أول ردود الأفعال هو التوضيح الصادر من القس «أندريا» ثم كان دفاع الأستاذ «حلمي النمنم» عن وصف هذا الاجتماع بالمؤامرة بأنه لأول مرة يرى مؤامرة مذاعة على الهواء مباشرة؛ متناسيًا أنهم لم يكونوا يعرفون أن اللقاء مذاع على الهواء! وأنصحه أن يعود إلى الفيديو؛ ليشاهد بنفسه كيف كان وقع خبر أن اللقاء مذاع على الهواء عليه وعلى مدير اللقاء.

وأما «التيار الإسلامي» فقد اختلفتْ ردود الأفعال الصادرة عنه، وهو ما سأعود إليه بالتفصيل لاحقًا.

وهذه جملة من التعليقات المختصرة على هذا المشهد:

١- ما زالت النخبة العالمانية تنكر الشمس في وضح النهار! فإذا خسروا الانتخابات قالوا إن الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية خدعوا الناس بالدين والشريعة، والشعب المصري شعب متدين بطبعه ثم إذا أرادوا أن يفرضوا عالمانيتهم رددوا مثل تلك الأقوال التي يزعمون فيها أن الشعب المصري عالماني بطبعه!

ونسي هؤلاء أن «دستور ١٩٢٣م» الذي أُعد في ظل قمة المد الليبرالي تضمن مادة تنص على أن «الإسلام دين الدولة»، وأن لجنة وضع الدستور قد اضطرت إلى الاستجابة بالإجماع لاقتراح «ممثل الأزهر» آنذاك لإضافة هذه المادة، والتي تنسف عالمانية الدولة من الأساس؛ ولولا التعنت في تفسير هذه المادة لكانت كافية في الدلالة على المرجعية الشاملة للدولة المصرية للإسلام.

٢- ومما يشهد لذلك: أن تلك النخبة استغلت حالة سخط شعبي على أداء رئيس ينتمي للتيار الإسلامي؛ لكي يستثمروا الفرصة ويحققوا انتصارًا أيديولوجيًّا يعلمون أنهم لم يحققوه عبر تاريخهم! ولن يحققوه - إن شاء الله- .

٣- ومما ينبغي أن ننتبه إليه أن العالمانية في مصر عبر تاريخها قد استغلت خلافات المؤسسة العسكرية مع الإسلاميين للتواجد على ظهور الدبابات؛ حصل ذلك في خلافات «محمد علي» مع علماء الأزهر، ثم خلاف «عبد الناصر» مع الإخوان، وهو الأمر الذي تحسّن في بدايات عصر «السادات» ونتج عن اندماج الجيش مع روح تدين الشعب المصري انتصار العاشر من رمضان، ثم حدثت أحداث مقتل «السادات» (وهي حادثة ما زالت الحركة الإسلامية تدفع ثمنها حتى الآن).

ومن يومها والعالمانيون يسيطرون على إعلام وثقافة الدولة بلا ظهير شعبي حقيقي، ونحن نتمنى ألا تنتهي الأحداث الحالية بحالة عسكرة جديدة للعالمانية، بل نريد جيشنا وطنيًّا وليترك ساحة السجال الأيديولوجي والسياسي لأدواته ولا يُستدرج لمحاولة العالمانيين الاستقواء به، كما يجب على الإسلاميين أن يعوا أن الفرصة ما زالت قائمة ليبقى الجيش محايدًا بيْن الإسلاميين والعالمانيين، ويبقى أن الشعب - بحمد الله- ليس محايدًا، بل أغلبيته منحازة إلى مرجعية الإسلام.

٤- يتضح هذا من نسبة التصويت على «دستور ٢٠١٢م» حيث رفضه الثلث، وهذا الثلث فيه بعض الإسلاميين الذين كانوا يريدون دستورًا أوضح، وفيه مَن رفض الدستور لرفضه لمواد لا تتعلق بالهوية؛ مما يؤكد على أن رافضي زيادة مواد الهوية عما كانت عليه في «دستور١٩٧١م» لا يكادون يتعدون ١٥٪، وأما «المادة الثانية» بنصها في «دستور١٩٧١م»؛ فيكفيك تصريح القس «أندريا» بأنها خط أحمر، وأن معظم المشاركين في ندوة الكنيسة قد صرّح بذلك.

٥- هذا يقودنا إلى نقطة أخرى عجيبة، وهي: هل يفهم العالمانيون معنى العالمانية؟! وهل يتفق مع العالمانية بأي صورة من الصور أن تعقد الكنيسة ندوة لمناقشة الموقف من الدستور ثم يقبل ذلك الشخص الذي يزعم أن الشعب المصري عالماني بطبعه أن يشارك في تلك الندوة ولا يمتعض أو يقول: ما للكنيسة والدستور؟! ولا يخفف من حدة الأمر ما صرّح به القس «أندريا» من أن اللقاء كان في فندق ولم يكن في الكنيسة.

٦- العجب من حال تلك النخبة مع «دستور١٩٧١م» حيث هبوا بعد تنحي «مبارك» في «فبراير ٢٠١١م» لكي يرفضوا بكل ما أوتوا من قوة تعديل «دستور١٩٧١م» آملين آنذاك أنهم في حال كتابة دستور جديد سوف يحذفون المادة الثانية - «ولا من شاف ولا من دري»- تمامًا كما كانوا يتوهمون في مناقشاتهم تلك؛ فلما سارت الأمور على خلاف ما يهوون ووصلنا إلى مرحلة الاستفتاء على «دستور ٢٠١٢م» نادوا بإيقاف الاستفتاء والعودة إلى «دستور١٩٧١م»! ثم الآن وبعد عزل الرئيس «مرسي»

ورغم أن اعتراضات الناس كانت على أداء الرئيس وليس على صلاحياته في الدستور، فإن تزيدت قلت: إنهم كانوا معترضين على صلاحيات الرئيس في الدستور - إذ بهم يحاولون العودة إلى «دستور١٩٧١م» بدلاً من «دستور ٢٠١٢م» مع أن صلاحيات الرئيس في الثاني أقل من الأول!

٧- انقلاب المستشارة «تهاني الجبالي» ومن ورائها كل «الإعلام الفلولي» على د.«البرادعي»؛ لمجرد تصرفه من منطلق رجل الدولة الذي يجب أن يراعي التوازنات وألا ينحاز إلى المدرسة التي ينتمي إليها «هذا وفق تصورهم في قضية العدول عن إعلان العودة إلى دستور١٩٧١م إلى إعلان تجميد دستور ٢٠١٢م لحين تعديله» يدل على أنهم يفعلون ما نقموه على الدكتور «مرسي» وزيادة!

ولكنه يدل من جهة أخرى على درسين في غاية الأهمية نذكرهما في النقطتين الآتيتين:

٨- إذا كنتَ في السلطة فأنت محكوم بتوازنات واقعية كثيرة بخلاف ما لو كنت في المعارضة أو كنت في موقع المناضل الفكري، وهذه التوازنات لا تقتضي أن تتنازل عن منهجك كمنهج تدافع وتنافح عنه، ولكن قد تصل أحيانًا إلى أحوال تقدر فيها الضرورة بقدرها، ورغم أننا كنا ننكر على إخواننا في الإخوان تقديمهم لتنازلاتٍ منهجية كان يلزمهم ألا يقدموها؛ إلا أننا اختلفنا معهم اختلافًا عكسيًّا في المساحة التي كان يتعين على الرئيس «مرسي» أن يتيحها للمعارضة حتى المختلفة معه أيديولوجيًّا.

٩- والأهم من ذلك: أنك متى وجدتَ سلطة حاكمة؛ فتوازنات الحكم هي الغالبة عليها بغض النظر عن توجه أفرادها، ولو ترك الأمر لمعظم القادة المدنيين والعسكريين - على حد سواء- بلا توازنات لانحازوا إلى مرجعية الشريعة؛ بحكم كونها المرجعية الطبيعية للشعب المصري، ولكن العالمانيين يجيدون توظيف السياسة الخارجية، والسياحة، وغيرها... كأوراق تدفع رجال الحكم في الاتجاه العالماني.

فكان من العبث أن نخلي الساحة تمامًا من الإسلاميين، ومن أجل ذلك تحمل «حزب النور» مرارة التواجد في مشهد «٣ يوليو»؛ لأنه أدرك أن الرئيس كان عاجزًا عن الحكم يوم كانت الداخلية تقف متفرجة على حوادث العنف الصريحة، وكانت الكهرباء تقطع بلا مبرر، والمواد البترولية تظهر ثم تختفي دون سبب ظاهر، ثم استحكم الأمر من قبل «٣٠ يونيو» بأسبوع بما يعني أن المراهنة على موازنات ما بعد الرئيس «مرسي».

١٠- وهذا الفيديو يؤكد رؤية الحزب ومفاوضاته، وأنه بشهادة الخصوم لم يكن يطلب إلا الحفاظ على هوية الدولة، وهذا يكفي لكي يكف كل منصف عن اتهام الحزب بالتهم الباطلة، لا سيما وأن الحزب رفض المشاركة في الحكومة؛ حتى لا يُظن أن هذا هو ثمن تواجده في المشهد.

١١- وبعد أن قررنا أن هذا الفيديو ينفي - بالقطع- التهم التي بثها الشيطان في روع البعض، يبقى أن نقول: هل نجح «حزب النور» فيما راهن عليه أم أن هذا الفيديو يشهد بالعكس؟!

فنقول: إن هذا الفيديو ليس للجنة تعديل الدستور، وإنما هو للخصم الأيديولوجي، وستبقى اللجنة وعينها معلقة على من سوف يستطيع تحريك الناس في الاستفتاء على التعديلات بـ«نعم» أو «لا»، ومقدار نجاحنا يكون بمقدار اصطفافنا حول الهدف الذي رأيناه من ناحية أنه أهم، ومن ناحية أخرى: أنه ممكن؛ بينما راهنت الأحزاب الإسلامية الأخرى على عودة كل شيء... وهو ما رأيناه بعيدًا!

١٢- وهذه الرؤية رؤية كثير من الرموز مع اختلاف العبارات، فمبادرة د.«العوا» ود.«البشري» ود.«عمارة» تلتقي مع هذه الرؤية مع الفارق أن أصحابها لم يتواجدوا يوم «٣ يوليو» وصرّحوا بأنه انقلاب عسكري «مع ملاحظة أن قضيتنا ليست المصطلح» ثم إنهم بعد ذلك قدّموا مبادرة للتفاهم مع الوضع الذي أوجده ذلك الانقلاب، وهي النقطة

العملية الجوهرية.

١٣- ومن الغريب أن يصب كثير من إخواننا في الجماعة الإسلامية جام غضبهم على «حزب النور» في حين تؤيد بعض مرجعياتهم هذا التوجه.

ومن هؤلاء: د.«ناجح إبراهيم»، والذي كتب مقالاً بعنوان: «الإسلاميون بين خيار الجزائر وخيار أردوغان»، جاء فيه: «الخيار الجزائري (خيار الدم والعنف)، وهذا الخيار اتخذته القوى الإسلامية الجزائرية، وعلى رأسها: جبهة الإنقاذ بعد أن قام الجيش الجزائري بإلغاء نتيجة الانتخابات البرلمانية التي فازت بها جبهة الإنقاذ عام ١٩٩٢م... وبعد أن أطيح بالرئيس الإصلاحي «الشاذلي بن جديد»، واستمر هذا الصراع الدموي العنيف بين جبهة الإنقاذ وحلفائها مع الجيش والشرطة عشر سنوات كاملة سقط فيها ١٠٠ ألف قتيل و١٨٠ ألف جريح - تأملوا الأرقام جيدًا- معظمهم من الأبرياء المدنيين، وحشر الإسلاميون حشرًا إلى السجون، وظهرت جماعات التكفير التي استباحت أعراض المسلمين ودماءهم في قرى وجبال الجزائر، وتمت مذابح عديدة للقرويين بأيديهم تارة وبأيدي الجيش الجزائري أخرى، ودارت آلة التعذيب الجهنمية في السجون.

ورفض الإخوان الجزائريون هذا الخيار ممثلين في حركة حماس الجزائرية، وأشبّه موقفهم بموقف حزب النور الآن في مصر، واتهمتهم جبهة الإنقاذ هناك بالخيانة؛ لأنهم قبلوا بالعملية السياسية بعد انقلاب الجيش الجزائري، وبعد كل الخسائر الفظيعة التي قاربت ١/ ٤ مليون قتيل وجريح... ماذا كانت النتيجة؟!

لا الشرعية عادت، ولا الشريعة طُبقت، ولا الدماء حقنت - ولكنها أهدرت!- ، ولا الأعراض حُفظت، ولا الدعوة الإسلامية بقيت، ولا الجزائر تطورت، لقد ضاع كل شيء... !» (انتهى).

بالطبع سوف يقول البعض أن رؤية د.«ناجح» غير ملزمة لمجلس شورى الجماعة - وهذا غير صحيح- ، ولكن هل يملكون أن يتهموه بما اتهموا به غيره أم أن المسألة فيها تشهي وهوى؟!

كما لا ينبغي أن يحتج علينا أحد بأننا نرفض عددًا لا بأس به من آراء وتوجهات د.«ناجح»، وهذا لا ينفي الاحتجاج - الذي ذكرناه- عليهم بأنهم ما استطاعوا أن يخوِّنوا د.«ناجح» كما يفعلون مع «قادة حزب النور»، ونحن - كما كررنا مرارًا- نرفض التنازل في قضايا المنهج، ونقبل بالممكن منه كواقع ونبدي مرونة واقعية بناءً على ذلك، وثمة مَن يتساهل في الأمرين، وهناك من يتشدد في الأمرين، وأسوأ منهما من يعكس الأوضاع!

١٤- حديث هؤلاء عن الدماء التي ينبغي أن تسيل من أجل الديمقراطية لا ينبغي أن يمر مرور الكرام! وإذا كانوا ينكرون على مَن يريد أن يقدِّم من أتباعه شهداء من أجل قضيته - ونحن أيضًا ننادي بترشيد الدعوة إلى الاستشهاد حتى لا توظف في تقديم تضحيات في غير بابها أو لا تؤدي إلى أي ثمرة تُذكر، ولنأخذ العظة من غزوة مؤتة وغيرها من وقائع السيرة- إلا أن المفجع هنا فيمن لديه استعداد لإراقة دماء منافسيه من أجل الديمقراطية المزعومة! وهو كاذب في هذا، وإنما يريد الديكتاتورية العالمانية، فإن ثمة مدارس اشتراكية تنادي بالديمقراطية تحت ظل فكرة شمولية بشرية - في حين يرفضون الديمقراطية تحت ظل منهج الله وهي الشريعة الإسلامية- ، بل إن كثيرًا من المدارس الليبرالية تتبنى الديكتاتورية؛ على الأقل في مرحلة كتابة الدساتير!

وإذا كنا نتحدث عن الإرهاب... فهذا بلاغ مفتوح «للنائب العام» أن يحقق في دعوات العنف والكراهية والإرهاب في اجتماع كان يراد له أن يكون سريًّا!

١٥- تكرر استعمالي للفظ «النخبة» في وصف أصحاب هذا الاجتماع - ومن كان على شاكلتهم- ، مع أنه كان يسعني ولو من باب المعاملة بالمثل أن أستخدم ما شئتُ من الألفاظ والأوصاف التي لن تصل بحال من الأحوال إلى حد ما استعملوه من أوصاف وصفوا بها «حزب النور»!

وذلك لسببين:

الأول: أنني لا أفضّل أن تتحول خلافاتنا مع العالمانيين إلى حرب ألفاظ لن تستطيع أن تجاريهم فيها، ومتى فعلت خسرتَ الكثير من وقارك كما حدث من بعض الفضائيات الإسلامية قبل «٣٠-٦- ٢٠١٣م»، ورأينا كيف كان خصومهم يسوغون لأنفسهم كل شيء ثم يستنكرون أن يصدر مثل أفعالهم في قنوات دينية أو من دعاة دينيين! والأفضل دائمًا أن نبقي المسألة في إطار النقاش المنهجي، وهذا شأن مَن يريد الانتصار للحق.

الثاني: أن وصفهم بـ«النخبة» وإن كان يرضي غرور البعض؛ إلا أنه في ذات الوقت يثبت عزلتهم عن الأمة، ومدى شعورهم بهذه العزلة التي يسترونها بهذا الاستعلاء الذي لا يزيدهم إلا عزلة! وهي قضيتنا في الفترة القادمة أن نُثبت أن قضية مرجعية الشريعة هي قضية كل المسلمين ولا يختص بها فريق منهم يُسمى: بـ«الإسلاميين»، فالإسلاميون يخطئون؛ فهل تضيع الشريعة مع خطأ أي فصيل منهم في حكم أو في معارضة أو في دعوة؟!

قضية الإسلام كمنهج حياة يجب أن تكون هي قضية الشعب المصري كله؛ مصداقًا لقوله - تعالى- : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

فلندافع عنها من مواقعنا وسط جمهور المسلمين وهو المكان الطبيعي لنا، ولا ينبغي أن نسمح مرة ثانية أن نحبس أنفسنا في مساجد تُعرف لدى الجمهور بمساجد «السنيين»؛ مما يصد البعض عن خوض تجربة دخولها.

إن مساجدنا هي محاضننا التربوية، وهي التي نتزود فيها بنور الإيمان؛ لنخرج إلى الدنيا لا لنبقى داخلها، نخرج نخالط إخواننا وأهلينا ونخفف معاناتهم، ونعلمهم ونتعلم منهم، ونعيش بإسلامنا ولإسلامنا.

والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الكنائس النصرانية والتحولات الفكرية في العمل السياسي

مركز التأصيل للدراسات والبحوث ٢٠١٣/٧/٢٩

إن هذا التحول التدريجي المشترك بين الكنائس النصرانية في الأفكار لابد وأن ينظر له بفطنة وأن يؤخذ في الاعتبار معه وجود حالة من التقارب وإنهاء الخلافات والانقسامات بين الكنائس الثلاث الأكبر في العالم وخاصة بعد زيارة الأنبا تواضروس للفاتيكان ودعوة بابا الفاتيكان لزيارة مصر وهو الأمر الذي لم يكن يسمح به بابا الارثوذوكس السابق شنودة الذي لم يستقبل يوحنا بولس عند زيارة الأخير لمصر ولم يسمح له بدخول كنائس الارثوذوكس لاعتقاده بكفره ونجاسته ولم يزر شنودة الفاتيكان مطلقا.

لطالما كانت العقيدة النصرانية في جانبها النظري متجهة اتجاها بعيدا تماما عن السياسة وتكتفي بالسلطة الروحية على أتباعها وذلك وفقا للتعاليم المكتوبة في صحفهم ومما نعلمها عنهم مثل ما جاء في سبعة مواعظ متتالية في رسالة رومية توصيهم بعدم منازعة السلطان ووجوب طاعته لأنه معين من الله عليهم، فجاء فيها:

١. لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ.

٢. حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً.

٣. فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفاً لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ.

٤. لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلَكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ

فَخَفْ لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثاً إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ.

٥. لِذَلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً بِسَبَبِ الضَّمِيرِ.

٦. فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هَذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أَيْضاً إِذْ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُواظِبُونَ عَلَى ذَلِكَ بِعَيْنِهِ.

٧. فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ.»

وقد خرقت الكنائس النصرانية هذه التعاليم في عدد من المرات أشهرها ما تم في العصور الوسطى حيث التحم القساوسة في الحكم بالقياصرة والملوك وتسبب ذلك في مظالم وفجائع كثيرة أدت بالأوروبيين في النهاية إلى الثورة عليهما معا وقيام الأفكار العلمانية لهذه الثورات التي نادت بمثل هذا المطلب الشهير «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، فأسقطت تدخل الكنيسة في السياسة وحاصرت الدين النصراني داخل الكنائس فقط.

لكنه وفي الآونة الأخيرة ظهرت مخالفات كنسية لهذا المفهوم الذي استقر لفترات في الكنيسة الأرثوذوكسية والكاثوليكية مما ينبئ عن تحول تدريجي في المفاهيم النصرانية وإهمالهم لهذه النصوص واتخاذهم لأفكار أخرى مضادة ومنغمسة في السياسة.

وتجلى ذلك في مصر حيث قام رأس الكنيسة الأرثوذوكسية على مستوى العالم بابا الأقباط في مصر بالتدخل العلني في السياسة وقام بالمساهمة الفعالة بأفراده ثم بنفسه وحضر المشهد الأهم وهو مشهد عزل الرئيس محمد مرسي وهو الأمر الذي كان عندهم محرما قبل ذلك مما يؤكد وجود هذا التحول الفكري لديهم.

أما عن الكنيسة الكاثوليكية فقد قام البابا بجمع شباب من دول العالم كله تقريبا – حوالي ١٧٠ دولة– في جمع يقدر بنحو مليوني شاب على شاطئ كوباكبانا في ريو دي جانيرو في البرازيل، وذلك في مؤتمر دولي كاثوليكي يعرف باسم اليوم العالمي للشباب، ثم ألقى فيهم خطبة من المفترض أن تكون وعظية كما هي العادة، إلا انه جعلها خطبة سياسية أكثر منها وعظية دعم فيها تظاهرات الشباب البرازيليين الذين يطالبون بمطالب سياسية.

ودعا بابا الفاتيكان الشباب النصراني إلى الانخراط في القضايا السياسية والاجتماعية قائلا لهم: «لا تبقوا عند شرفة الحياة، يسوع لم يبق هناك. لقد انخرط في التغيير. انخرطوا كما فعل يسوع»، مع العلم بأنه كما تقول كافة الأناجيل –التي لا نقر بصحة كل ما فيها- أن المسيح عليه السلام كان دوره روحيا وعظيا ولم يتدخل في شئون الناس السياسية بل وأمرهم بأداء حقوق قيصر عليهم – حسب ما يقولون ويعتقدون- : «ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَا تُبَالِي بِأَحَدٍ، لِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللّهِ. أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لَا؟ نُعْطِي أَمْ لَا نُعْطِي؟» فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ اِيتُونِي بِدِينَارٍ لِأَنْظُرَهُ». فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَقَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَأَجَابَ يَسُوعُ: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ». فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ».

إن هذا التحول التدريجي المشترك بين الكنائس النصرانية في الأفكار لابد وأن ينظر له بفطنة وأن يؤخذ في الاعتبار معه وجود حالة من التقارب وإنهاء الخلافات والانقسامات بين الكنائس الثلاث الأكبر في العالم وخاصة بعد زيارة الأنبا تواضروس للفاتيكان ودعوة بابا الفاتيكان لزيارة مصر وهو الأمر الذي لم يكن يسمح به بابا الارثوذوكس السابق شنودة الذي لم يستقبل يوحنا بولس عند زيارة الأخير لمصر ولم يسمح له بدخول كنائس الارثوذوكس لاعتقاده بكفره ونجاسته ولم يزر شنودة الفاتيكان مطلقا.

ومما يؤكد وجود هذا التحول ما قاله القس يحنا قلتة وهو نائب رئيس الكنيسة الكاثوليكية بمصر في مداخلة تليفزيونية له معقبا على زيارة تواضروس للفاتيكان: «إن زيارة البابا تواضروس الثاني إلى الفاتيكان ليست بدعة، وأن اللقاءات بين القيم الدينية ضرورة حتمية، إلى أن الاختلافات بين الكنيستين ليست عقائدية بالأساس وإنما هي اختلافات حضارية وتاريخية» وكلامه كله مغالطات تاريخية وعقائدية وفكرية، وإنما تؤكد كلمته على وجود هذا التقارب ومحاولة محو أي خلاف تاريخي استعدادا لمواجهة عدو مشترك والذي لا نشك انه هو الإسلام.

استهداف المسيحيين..
كذبة لفقها نظام الأسد وتلقفها «الطائفيون»

صالح القلاب - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٧/١٨

لا تفسير إطلاقا لهذا الاصطفاف الطائفي إلى جانب نظام بشار الأسد بحجة الخوف من التطرف الإسلامي إلا أن هناك من استيقظ لديه «ثأر» قديم وأن هناك من بات يرى ويعتقد أن الفرصة غدت سانحة لإقامة كيانات الطوائف والمذاهب وفقا لما كان نادى به أول وزير خارجية لإسرائيل موشيه شاريت، الذي كان العرب يسمونه موسى شرتوك، كأحد المقومات الاستراتيجية للأمن المستقبلي الدائم للدولة الإسرائيلية التي يبدو أنها غير بعيدة عن هذه الاستقطابات الطائفية التي من المفترض أنها غريبة عن هذه المنطقة وبخاصة بالنسبة لمسيحيي الشرق الذين هم مكون قومي عربي في العراق وبلاد الشام.

إنه من المعروف أن رفع الجنرال ميشال عون راية الحرص الكاذب على مسيحيي سوريا والمنطقة من الأصولية الإسلامية سببه أن «سنة» لبنان هم الذين حالوا دون تبوئه منصب رئيس الجمهورية في نهايات ثمانين القرن الماضي عندما كان رئيسا للحكومة العسكرية بتكليف من الرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميل، وحيث أصبحت تلك الحكومة مباشرة وفور تشكيلها في سبتمبر (أيلول) عام ١٩٨٨ في مواجهة مع حكومة الدكتور سليم الحص وبخاصة بعد استقالة الوزراء المسلمين من حكومته العسكرية هذه التي شغل هو فيها موقع وزير الدفاع ووزير الإعلام ووزير الخارجية والمغتربين ووزير التربية الوطنية والفنون الجميلة، وأيضا وزيرا للداخلية بالوكالة، وكل هذا مع احتفاظه برتبته العسكرية.

كان الجنرال عون يعتقد أنه الأحق بموقع رئيس الجمهورية دائما وأبدا من بين رموز الطائفة المارونية المسيحية، وكان يظن أن اختياره لهذا الموقع يعتبر من قبيل «تحصيل الحاصل» وعلى غرار ما حدث مع الجنرال فؤاد شهاب بعد حرب ١٩٥٨ الأهلية، لكن هذا لم يتم أولا لأن واقع ما بعد هذه الحرب الأهلية الآنفة الذكر يختلف كثيرا عن واقع ما بعد حرب ١٩٧٥ التي لم تكن قد انتهت بعد والتي لم تنتهِ إلا بعد انعقاد مؤتمر الطائف الشهير في المملكة العربية السعودية في أغسطس (آب) عام ١٩٨٩، وثانيا لأن عون نفسه يختلف كثيرا عن فؤاد شهاب الذي كان يتمتع باحترام الشعب اللبناني بكل طوائفه وفئاته.

لقد بقيت هذه الرغبة كجمرة متقدة في قلب عون، الذي كانت طموحاته وربما لا تزال أكبر كثيرا من إمكانياته وأيضا من شعبيته في الطائفة المارونية، على مدى خمسة عشر عاما قضاها لاجئا سياسيا في فرنسا، وكل هذا إلى أن عاد من منفاه الفرنسي في عام ٢٠٠٥ بموافقة سوريا وبوساطة من حزب الله الذي انضوى لاحقا معه باسم «التيار الوطني الحر» في تحالف الثامن من مارس (آذار)، والذي أخذه للقاء مصالحة «تاريخي» مع بشار الأسد في الثالث من ديسمبر (كانون الأول) عام ٢٠٠٨.

بعد ذلك اللقاء «التاريخي» التصالحي انتعشت

لـدى الجنـرال ميـشال عـون أحلامـه وتطلعاتـه القديمة ظنا منه، وهذا صحيح كل الصحة في ذلك الوقت، أن قـرار مـن يـصبح رئيـسا للبنـان في دمـشق وليس في بيروت، ولذلك فإن مزايداته بالولاء للنظام السوري تجاوزت كل الحدود ووصلت إلى أنه قد قام بزيـارة «حـج» إلى طهـران، وأنـه انحـاز منـذ اللحظـة الأولى إلى هذه الحرب الهمجية التي بدأها بشار الأسد ضـد شـعب سـوريا في الحـادي عـشر مـن مـارس عـام ٢٠١١ وأنــه، أي عــون، قــد بــادر إلى رفــع رايــة الاستقطاب الطـائفي ضـد المعارضـة السورية بمجـرد إطلاق رئيس النظـام الطـائفي، وليس نظـام الطـائفة، في دمشق كذبة أنه يواجه تنظيمات إسلامية إرهابية تستهدف «العلويين» وكل الطوائف والأقليات الأخرى وفي مقدمتها الأقلية المسيحية.

وهكـذا فقـد بـدأت «جوقـة»، قادهـا ميـشال عـون وأتباعـه وشـارك فيهـا حـسن نـصر الله الـذي ليس ثبت بل أثبت أنـه أكـبر طـائفي في هـذه المنطقـة وأنــه يكــره «الــسنة» ربمــا أكثــر مــن كرهــه للإســرائيليين، كمـا شـاركت فيهـا فلـول الأحـزاب الـشيوعية وبـاقي مـا تبقـى مـن بعثيـي سـوريا والعـراق والكثير من الكتبة الكذبة... بالعزف على أوتار أن بشار الأسد هو حامي حمى الأقليات القومية والمذهبية في هـذه المنطقـة، وأن الحـرب الداميـة والمـدمرة الـتي يخوضــها ضــد الــشعب الــسوري هــي حــرب ضــد «القاعدة» وضد «النصرة» وضد الإرهـاب الإسـلامي، وأن تحالفه مع إيران ومع سوريا ومع حزب الله وكل زمر القتل الطائفيـة القادمـة من عـراق نـوري المـالكي هو تحالف ضد التنظيمات الإرهابية!!

وهنا فإن مـا يبعـث علـى الاسـتغراب والتـساؤل هو أن الغرب الأوروبي كله ومعه الولايات المتحدة والكثير من الدول الأخرى، التي دفعهـا مـا يجـري في سـوريا إلى استحضار منـاخ الحـروب الـصليبية الـتي كـان العـرب والمسلمون قد وصفوها وعرفوها في كـل أدبيــاتهم وفي كــل مــدوناتهم التاريخيــة بــ«حــروب الفرنجة»، قد تلقف كذبة النظام السوري هـذه وأخذ يـنفخ فيهـا مـستعينا بكـل الطـائفيين «المستترين» في هـذه المنطقـة لتبريـر امتنـاع الأميركـيين والأوروبـيين تزويد الجيش الحر بالأسلحة التي يحتاج إليها للدفاع عـن شـعبه وكـأن الهـدف، كمـا يقـول الـبعض، هـو اسـتخدام هـذا المـبرر واسـتخدام هـذه الحجـة لـترك سـوريا تأكـل نفسها بنفسها خدمـة لإسـرائيل وأيضا خدمة لمشروع تمزيق هذا الجزء من الوطن العربي إلى دويلات «فسيفسائية» عرقية ومذهبية.

إنه لا جدال إطلاقا في أن مسيحيي العـراق قد تعرضوا هـم وبعـض بيعهم وكنـائسهم لاعتـداءات إجرامية وإرهـابية مرفوضة ومدانة، ولكـن ما يجب أن يؤخذ بعـين الاعتبـار هنـا هـو أن «الـسنة» و«الـشيعة» في العــراق قــد تعرضــوا أيــضا هــم ومــساجدهم و«حــسينياتهم» و«حــوزاتهم العلميــة» إلى أكثــر ممــا تعـرض لـه المسيحيون وتعرضـت لـه أمـاكنهم الدينيـة منذ عام ٢٠٠٣ على أيدي المجموعات الإرهابية نفسها التي بقي نظام بشار الأسد يصدرها إلى بلاد الرافدين بحجـة ضـرورة إغـراق الأميركـيين «الغـزاة» في أوحـال دجلة والفرات وفي رمال الصحارى العراقية المتحركة.

لقد اضطر بعض مسيحيي العـراق تحت وطـأة الخـوف مـن الإرهـاب، الـذي لا يـزال يخـبط خـبط عشواء في كل المناطق والمدن والقرى العراقية، وتحت إلحـاح التـسهيلات الغربيـة الأوروبيـة والأميركيـة، إلى الهجرة والنزوح إلى الخـارج، وإن هـذا أمـر لا نقـاش في رفضه وإدانته، لكـن وفي كل الأحوال فإنه لا بـد من الأخذ بعين الاعتبار أن ظاهرة الهجرة القسرية، فـرارا من هذا الإرهاب الذي غدا مستفحلا ومتجذرا في هذا البلد المخترق وحتى النخاع الشوكـي مـن قبـل الأجهـزة الأمنيـة الإيرانيـة، قـد شملـت المـسلمين أيـضا «سـنة» و«شيعة»، وإنه على من لديه أي شكوك بالنسبة لهذه الحقيقـة أن يراجـع ملفـات ملايـين العـراقيين الـذين غادروا بلدهم خلال الأعوام العشرة الأخيرة وقبل ذلك ولجـأوا إلى الـدول العربيـة المجـاورة ومـن بينهـا سـوريا نفسها والأردن وإلى أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا وكل بقاع الأرض.

ثم إن المعروف أن ظاهرة استدراج المسيحيين من أبناء هذه المنطقة ومن بينهم أقباط مصر ومسيحيو بلاد الشام والعراق من قبل حكومات وكنائس الغرب وإغرائهم بتسهيلات الهجرة إلى أوروبا والولايات المتحدة هي ظاهرة قديمة وقبل أن يعرف الشرق الأوسط هذا العنف وهذا الإرهاب بسنوات كثيرة بعيدة، وحقيقة أن هذه التسهيلات غير البريئة هي التي تسببت في استنزاف الطوائف المسيحية الشرقية كلها وجعل أعداد أبنائها تتناقص بهذه الطريقة المرعبة التي يجب التصدي لها بكل الوسائل الفعلية المتاحة، وذلك لأن هذا الشرق العربي سيفقد نكهته لا محالة إذا تحول إلى مجتمعات صماء بلون واحد.

إن هناك هجرة من هذه المنطقة العربية، وأيضا من المغرب العربي بكل أقطاره، كانت قد بدأت في اتجاه الغرب وتحديدا تجاه الولايات المتحدة منذ القرن التاسع عشر وقبل ذلك، فأميركا التي غدت دولة الفرص السانحة أصبحت مقصد الباحثين عن هذه الفرص بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية، وهذا ينطبق أيضا على الكثير من دول أميركا اللاتينية والكثير من الدول الأفريقية التي حققت الجاليات اللبنانية والجاليات الفلسطينية فيها نجاحات اقتصادية وسياسية مرموقة ووصل بعض أبناء هاتين الجاليتين إلى مواقع مرموقة في هذه الدول من بينها موقع الرئاسة الأولى الذي هو موقع رئاسة الجمهورية.

«دويلة» تتهيأ لخلافة «دولتين»

إياد أبو شقرة - الشرق الأوسط ٢٠١٣/٨/٧

احتفل لبنان في مطلع أغسطس (آب) الجاري بـ«يوم الجيش»، وجرى خلال احتفال رسمي تخريج جيل جديد من الضباط.

في سماء المدرسة الحربية، المطلة على بيروت، حلقت هليكوبترات عسكرية حاملة الأعلام الوطنية. وتحتها في الساحة الكبرى للمدرسة سارت طوابير العرض، وقطع رمزية من الأسلحة والأفواج خلف راياتها، وفي المنصة الرئيسة تابع الاحتفال أركان الدولة من كبار الرسميين.

شكليا كانت «الدولة» حاضرة.

الرؤساء من شتى الأصناف والمسميات كانوا هناك.. «الحالي» منهم و«الدائم» و«المستقيل» و«المكلف». وربما، على مقربة منهم، كان هناك أيضا رئيس «مقبل»... من يدري؟

حتى الخطاب التقليدي لرئيس الجمهورية ميشال سليمان جاء خطاب رجل دولة حقيقي يعيش هاجس السيادة... الحاضرة مظهرا والمغيبة مضمونا. لكن تداعيات الخطاب، في ضوء مضمونه الجريء حول حصرية السلاح ومفهوم التوافق الوطني ومعنى «الشهادة» - وفق الواقع اللبناني السوري المزري - لم تنتظر طويلا.

ردات الفعل جاءت سريعة، لكن الأهم كان الرسائل الصاروخية وخطاب السيد حسن نصر الله بمناسبة «يوم القدس» وما أثاره من لغط، وكذلك تفاقم أعمال الخطف الطائفي المتبادل، والقصف الجوي السوري للمناطق الحدودية القريبة من بلدة عرسال، وكلها تعكس مدى انهيار الدولة بكل مضامينها.

لبنان اليوم، بمعزل عن عبثية اللبنانيين المزمنة في الهروب من الوقوع، يعيش عدا عكسيا باتجاه الانهيار. إذ ما عادت هناك أي نقاط تلاق وطني... بينما تنهار مؤسسات الدولة الواحدة تلو الأخرى أمام خلفيات عشائرية - فئوية ونفسيات مريضة وزعامات محلية متخلفة وضيقة الأفق وسقيمة المنطق.

الأمثال أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكن أبرزها التعايش العجيب المفروض بالقوة بين «دولة» ضعيفة و«دويلة» قوية. هنا «الدولة» سلاحها مخصص لضمان الأمن الداخلي لا أكثر، لكنه غير مؤهل لقتال العدو، كما لمح بالأمس قائد سابق للجيش

اسمه ميشال عون، في سياق تأكيده تأييد احتفاظ حزب الله بسلاحه.

تأييد عون، النائب في البرلمان، تكرارا لوجود سلاح خاص أقوى من سلاح الجيش لا بد أن يثير علامات استفهام في أي بلد يحترم نفسه. ثم إن هذا «السلاح الخاص» غير متاح لجميع اللبنانيين لأن الحزب الذي يملكه حزب ديني، وقراره السياسي والعسكري خارج صلاحيات الدولة اللبنانية المفترض أن يتساوى المواطنون جميعا تحت سقفها... ابتداء من الاستشهاد في سبيل حماية تراب الوطن... وانتهاء بدفع الضرائب والجمارك والحصول على تعويضات البطالة ونهاية الخدمة!

أيضا هذا الجيش، الذي يعد إلى جانب القضاء آخر حصون «الشرعية» الهشة في البلاد، مجبر بحكم ميزان القوى المختل بين «الدولة» و«الدويلة»... على ممارسة المهام الموكلة إليه بانتقائية. فما يتاح له فعله في ضواحي مدينة صيدا وفي محيط عرسال يعجز عن فعله، بل من غير الوارد أن يفعله، في «مربعات أمنية» محظورة عليه بحجة تفرغها لمهام «المقاومة». ولذا لا يكترث ساسة من نوعية عون بكونهم يؤذون صدقية الجيش ويهددون هيبته ويفقدونه ثقة المواطنين بحياديته عندما يفرطون بدعمه كلاميا إبان أو بعد عمليات تتعلق بمناطق جغرافية ومذهبية معين... دون مناطق أخرى.

هذا يجر إلى إثارة نقطة قد لا تهم غير اللبنانيين هي الأزمة التي أثيرت حول تمديد مدة خدمة قائد الجيش ورئيس الأركان.

قبل بضعة أشهر، عندما بلغ اللواء أشرف ريفي قائد قوى الأمن الداخلي (سني من مدينة طرابلس) سن التقاعد أصر تكتل «٨ آذار»، المكون من «الثنائي الشيعي» (حزب الله وحركة أمل) وتوابعه من شراذم وتنظيمات، على رفض تمديد خدمته. وفعلا أحيل ريفي، المحسوب على تيار «المستقبل»، على التقاعد.

ولكن بالأمس مع اقتراب كل من قائد الجيش جان قهوجي (ماروني) ورئيس الأركان وليد سلمان (درزي) من سن التقاعد، ارتبك الوضع وتنادى الجميع للعمل على التمديد لهما. وحقا أيد «الثنائي الشيعي» التمديد في حين جاءت المعارضة الوحيدة من عون.

إلى هذا الحد تبدو الأمور طبيعية بالنسبة لعون الذي كان أصلا ضد التمديد لريفي، ومجددا انسجم مع نفسه فعارض التمديد لقهوجي وسلمان. غير أن باطن الأمور يختلف عن ظاهرها.

في الأصل كان تعيين قادة الأجهزة الأمنية (الجيش والأمن الداخلي والأمن العام وأمن الدولة) يرضخ لتفاهمات عريضة تنطلق من تمتع القائد المرشح بترشيح قوي من الزعامة النافذة للطائفة التي ينتمي إليها... ثم تكتمل عملية التعيين بموافقة الآخرين. إلا أن وجود السلاح في يد تنظيم طائفي واحد غير عناصر المعادلة كلها. وبالتالي، بات تيار «المستقبل» الذي يمتلك غالبية التمثيل النيابي السني عاجزا عن فرض مرشحه المفضل أو - كما في حالة ريفي - الدفاع عنه والتمديد له. والأمر نفسه ينطبق على وليد جنبلاط الذي مورس «الفيتو» غير مرة ضد مرشحه المفضل لرئاسة الأركان.

في حالة قهوجي فإنه حظي بترشيح عون - مدعوما من «الثنائي الشيعي» طبعا - ورضا رئيس الجمهورية. ويومذاك كان ثمة مصلحة في تعيين قهوجي وفق حسابات عون... وأطراف مسيحية أخرى. لكن الأمر يختلف الآن في ظل الشلل الكامل للمؤسسات السياسية الذي يتجلى في تعذر تشكيل حكومة، فقد يعني التجديد لقهوجي جعله المرشح المفضل لرئاسة الجمهورية، كما حصل مع سلفه ميشال سليمان قبل بضع سنوات.

هذا الاحتمال مرفوض تماما عند عون الذي يرى أن لديه ثلاثة مرشحين لرئاسة الجمهورية، هم شخصه (مع أنه يقترب من سن الثمانين)، بالإضافة إلى زوجي ابنتيه العميد شامل روكز قائد فوج المغاوير (القوات الخاصة) والوزير جبران باسيل.

عون ما زال يطمع بالرئاسة... ومن أجلها لا يمانع بأي فراغ. أما حزب الله فمشروعه أكبر بكثير، وبعد قتاله في سوريا فإنه الآن عبر التجنيس الطائفي في مناطق بعينها من سوريا... منهمك بضبط رسم خريطة سوريا المقسمة.